الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي
معهـــد الآداب واللغـــــــات
قســـــم اللغة العربية وآدابها

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر تخصص أدب قديم موسومة بـ :

الخطاب الساخر في نقائض جرير والفرزدق

إعـــداد الطالبة:
دكون فضيلة

إشراف الأستاذ:
د. فايد محمد

السنة الجامعية
2020-2019

كلمة شكر

قال الله تعالى:﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾

سورة إبراهيم، الأية –07–.

إن الحمد لله ونحمده ونشكره على نعمة التوفيق ونية الاجتهاد في العمل، ولأن الله أوصى بحفظ الأمانة وبذكر الفضل فمن دواعي سرورنا الإقرار بالفضل لأهله والاعتراف لهم بالجميل، فذاك من سنن الأوصاف وشيم الوفاء.

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف "فايد محمد" الذي كان لنا عونا وسندا منذ بداية البحث.

وأشكر أيضا أعضاء اللجنة الذين تفضلوا وقبلوا مناقشة هذا البحث.

كما نتقدم بالشكر إلى كل من ساعدنا في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد.

إهداء

إلى الـذي رسـم لي الطريـق ولم يكمـل معـي المشـوار إلى مـن زرعت كلماته في الوجدان وصورته في الفؤاد إلى الذي وإن نسيت كل الدنيا فلست أنساه، إلى الذي وإن غاب عن عيني فليس عن فؤادي، إلى الذي رحل دون كلمة وداع تطفئ لهفة القلب الحيران.

إلى الـذي فقدتـه دون رجعـة إلى أبي رحمـه الله، إلى الـتي طواهـا الرّدى عني إلى روح أمي الطاهرة التي أتمنى وجودها معي رحمها الله وأسكنها فسيح جناته، إلى كل أخت وأخ موجود وفؤادي بحبهم يفوق الوجود، إلى كل من حملهم قلبي ولم تحملهم ورقتي أهديكم ثمرة عملي المتواضع.

فضيلة

مقدمـــة

مقدمة

لم يعد البحث في السخرية مجرد بحث هامشي قصارى ما يروم الباحث تحقيقه من ورائه التفكه والضحك غير المجدي لقد أضحى الخطاب الساخر كيانا نصيا له آليات تشكل خاصة وطرائق تصوير متفردة خاصة مع التأكيدات التي تصدر عن علماء الأنثروبولوجيا، حيث يعد هؤلاء الخطاب الساخر والضحك والمضحك محرارا يرسم تفاصيل التواصل بين الجماعات والأفراد.

إضافة إلى هذا فإن الخطاب الساخر متأصل ومتجذر في تراثنا الأدبي، فقد عرفت الثقافة العربية مختلف الفنون الخطابية الساخرة أبرزها فن النقائض الذي يعدّ بدوره من أبرز أنواع الشعر العربي في العصر الأموي، حيث مثّلت لونا من ألوان الصراع الأدبي بين الشعراء على الرغم من أنها امتداد للسخرية الجاهلية إلا أنها اعتبرت لونا جديدا كونها أتت بمستجدات لم يألفها العربي سابقا، وقد برز فيها مجموعة من الشعراء على رأسهم جرير والفرزدق والأخطل، فقد عمد هؤلاء في قصائدهم إلى التحدث عن التاريخ الجاهلي والتاريخ العربي الإسلامي والمواقف السياسية الخاصة بالدولة الأموية وغيرها، حيث توجد في نماذجه مجموعة من الأصوات والألفاظ والتراكيب التي ساهمت في بروز السخرية، والتي تؤدي إلى احتقار المسخور منه والاستهزاء به، كما تحدث الضحك والتفكه لدى المتلقي، ويسعى هؤلاء الشعراء فيها إلى البحث عن مثالب الخصم وقومه وماضيه وحاضره من أجل السخرية منه وإضحاك الجمهور من الناس.

فالنقائض كانت من أبرز العوامل التي ساعدت على تفشي الهجاء والسخرية اللاذعة ورواجها بين الناس.

وقد حاولنا من خلال هذا العمل الإجابة على بعض التساؤلات التي ظلت تراودنا وهي كالآتي:

- ما هي السخرية؟ وما هي أبرز المصطلحات والمفاهيم اللصيقة بها والمتداخلة معها؟

- كيف تجلت مظاهر السخرية في الخطابات الشعرية الخاصة بكل من جرير والفرزدق؟
- ما هي المستويات التي تجلى فيها التشكيل اللغوي الساخر عند هذين الشاعرين؟

وغيرها من الأسئلة التي حاولنا إيجاد حل لها عن طريق إتباع المنهج التاريخي مرورا بالمنهج الوصفي التحليلي وفق منهجية اشتملت على مقدمة كانت بمثابة تمهيد عام للموضوع الذي نحن بصدد دراسته في بحثنا المتواضع.

ومدخل مفاهيمي تناولنا فيه مفهوم السخرية في اللغة والاصطلاح كما تطرقنا فيه إلى أبرز المصطلحات المتداخلة بالسخرية.

أما الفصل الأول فعنوانه: السخرية النشأة والتطور تطرّقنا فيه إلى السخرية في ست عصور أدبية، فكان العصر الجاهلي ثم تلاه صدر الإسلام، ثم العصر الأموي، فالعصر العباسي مرورا بالعصر الأندلسي وختمناه بالعصر الحديث.

والفصل الثاني كان تحت عنوان: مظاهر الخطاب الساخر في نقائض جرير والفرزدق، تناولنا فيه لمحة موجزة عن النقائض في العهد الأموي، ثم تطرقنا فيه إلى التشكيل اللغوي الساخر في نقائض جرير والفرزدق، حيث درسناه وفق مستويين : المستوى الصوتي والمستوى التركيبي.

وختمنا البحث بخاتمة دونّا فيها أبرز نتائج البحث.

وقد اعتمدنا في ذلك على جملة من المصادر والمراجع منها:

- كتاب شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي.
- ومذكرة ماجستير بعنوان: السخرية في الشعر الأموي لسالم محمد بامؤمن.
- إضافة إلى أهم مصدرين وهما: ديوان جرير وديوان الفرزدق.

وغيرها من المصادر والمراجع التي يطول المقام بذكرها، وعليه قمنا بإعداد بحثنا الموسوم بـ: "الخطاب الساخر في نقائض جرير والفرزدق".

فكان فضولي حافزا كبيرا في اختيار هذا الموضوع، إذ أردت معرفة الأساليب الساخرة التي تجسّدت في شعر جرير والفرزدق خاصة في نقائضهما وكونهما اشتهرا بهذا الفن وبرزا فيه، إضافة إلى قلة درايتي بمظاهر السخرية عند كليهما، وقلة الدراسات حول موضوع السخرية، ما جعلني أقبل على هذه الدراسة لأسهم ولو بالشيء اليسير فيها وأفيد غيري بها.

وإننا في بحثنا وعلى تواضعه حاولنا جاهدين إخراج هذا البحث في هذه الصورة المتواضعة متأملين أن تكون هناك دراسات أوسع في هذا الموضوع.

وككل بحث اعترضتنا مجموعة من الصعوبات والعراقيل تمثّلت في: قلة المصادر والمراجع حول موضوع البحث، كما كتب هذا الموضوع في فترة مضطربة نوعا ما، فلم يتسنى لها برمجة جلسات مطولة مع الأستاذ المشرف، أضف إلى ذلك ظروف البلاد التي أدت إلى غلق الجامعات والمكتبات وغيرها من الصعوبات.

وفي الأخير نحمد الله تعالى أن وفّقنا إلى إتمام هذا العمل، كما نتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ المؤطر "فايد محمد" على كل التسهيلات والمساعدات التي قدمها لنا، كما نشكر كل من مدّ لنا يد العون من قريب أو بعيد.

وقبل الختام لابد لنا من الاعتراف بأن هذا العمل المتواضع ما هو إلا جهد لا ندّعي له الكمال، وعسى أن يلتمس لنا القارئ عذر البداية، فالكمال لله وحده.

دكون فضيلة

تيسمسيلت في : 2020-06-02

مَدْخَل

السخرية في الأدب مدخل مفاهيمي

تمهيد

1- مفهوم مصطلح السخرية لغة واصطلاحا

2- المفاهيم المرتبطة بالسخرية في الأدب

تمهيد:

يزخر شعرنا العربي القديم بالعديد من الأغراض الشعرية، التي غالبا ما تكون مجتمعة في قصيدة واحدة، ومن بين هذه الأغراض: الفخر، والغزل، والمديح والهجاء... هذا الأخير شهد في العصر الأموي تطورا كبيرا، وأصبح الشعراء يبرعون في نظمه، والهجاء غالبا ما يحمل في معانيه سخرية، لكنها ليست بمعنى الإضحاك الذي يعرفه جميع الناس، بل كانت سخرية من الأوضاع السائدة في ذلك الوقت؛ فقد كانت بمثابة الناقد الذي يرصد كل خفايا الحياة في عصر بني أمية ويقولبها في قالب ساخر، والسخرية مصطلح غني بمجموعة من التعريفات، وبداية سوف نورد التعريف اللغوي في المعاجم العربية القديمة والحديثة:

1- مفهوم مصطلح السخرية لغة واصطلاحا:

أ- لغة:

ورد مصطلح السخرية في العديد من المعاجم العربية، واختلف تعريفه من معجم لآخر، حيث جاء في لسان العرب لابن منظور وفق الآتي: «سَخِرَ مِنْهُ وَبِهِ سَخْراً وسَخَراً ومَسْخَراً وسُخْراً، بِالضَّمِّ، وسُخْرَةً وسِخْرِيّاً وسُخْرِيّاً وسُخْرِيَّة: هَزِئَ بِهِ؛ قال الْفَرَّاءُ: يُقَالُ سَخِرْتُ مِنْهُ، وَلَا يُقَالُ سَخِرْتُ بِهِ. وَقيل: السُّخريّة، بِالضَّمِّ: من التسخير، والسِّخريُّ، بِالْكَسْرِ: من الهُزء»[1]، ومن هذا التّعريف يتّضح لنا أنّ السخرية تعني الضحك، والاستهزاء والإذلال.

أما ابن فارس في كتابه "مقاييس اللغة" فقد جاء مفهوم السخرية عنده على النحو الآتي: « السِّينُ وَالْخَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُسْتَقِيمٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ وَاسْتِذْلَالٍ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنَا سَخَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الشَّيْءَ، وَذَلِكَ إِذَا ذَلَّلَهُ لِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}[الجاثية: 13]. وَيُقَالُ رَجُلٌ سُخْرَةٌ: يُسَخَّرُ فِي الْعَمَلِ، وَسُخْرَةٌ

1- ابن منظور محمد جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب، تح. عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 2003م، مادة سخر.

أَيْضًا، إِذَا كَانَ يُسْخَرُ مِنْهُ. فَإِنْ كَانَ هُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ قُلْتَ سُخَرَةٌ، بِفَتْحِ الْخَاءِ وَالرَّاءِ»[1]، وهنا تحمل لفظة السخرية معنى الاحتقار والإذلال والتسخير هدفها إلحاق الذُّل بالمسخور منه.

وجاء في معجم "العين" للفراهيدي الخليل بن أحمد: «سخر: سَخِرَ منه وبه، أي: استهزأ. والسُّخْرِيَّةُ: مصدر في المعنيين جميعا، وهو السُّخْرِيُّ أيضا ويكون نعتا كقولك: هم لك سِخْرِيٌّ وسُخْرِيّةٌ، مذكر ومؤنث [من ذكر قال: سِخْرِيّ، ومن أنث قال: سُخْرِيّة]. والسُّخرية: الضُّحَكَةُ»[2]، وهنا تعني الاستهزاء والضحك.

أما المعجم الوسيط فجاء تعريف السخرية فيه كما يلي: «سخر مِنْهُ وَبِه سخرا وسخرا وسخرية وسخرية هزئ بِهِ... السخرية: من يسخر من النَّاس، المسخرة: مَا يجلب السخرية جمع مساخر. السخرية: الهزء»[3]، ومن هنا فإن السخرية تحمل معنى الاستهزاء كذلك.

إضافة إلى الأزهري الذي عرَّف السخرية وفق الآتي: «سَخِرَ مِنْهُ وَبِه ــ إِذا تَهَزَّأَ بِهِ... والسُّخَرَةُ: الضُّحَكَةُ، فَأَما السُّخْرَةُ: فَمَا تَسَخَّرْتَ من خادِمٍ أَو دابَّةٍ بِلَا أَجْرٍ وَلَا ثمنٍ»[4]، ومن هذا التعريف للأزهري في كتابه تهذيب اللغة نرى أن السخرية تعني الضحك والإذلال والتسخير والقهر.

ورد في تعريف السخرية عند "الزمخشري" في كتابه: "أساس البلاغة" على النحو التالي: «سخر فلانُ سُخْرَةٌ سُخَرَةٌ، يضحك منه الناس ويضحك منهم، وسخِرتُ منه واستخرتُ، واتخذوه سُخريًا، وهو مَسْخَرَةٌ من المساخر، وتقول: رُبَّ مساخر يعدّها الناس مفاخر، وسخَره الله لك، وهؤلاء سُخْرَة للسلطان يتَسَخَّرُهم: يستعملهم بغير أجر»[5]، وهنا السخرية تعني الضحك والعمل بدون أجر.

1- أحمد بن فارس أبو الحسين ، معجم مقاييس اللغة، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، ج.3، ص.144.

2- الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، دار الكتب العلمية، ط.1، 2003م، ص.222.

3- المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط.4، 2004م، ص.421.

4- الأزهري محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تح. عبد السلام هارون، مراجعة: محمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء، مصر، 1964م، مادة سخر.

5- الزمخشري أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، ج.1، تح. محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1998م، ص.443.

أما في قاموس "المنجد في اللغة" لـ"لويس معلوف" فتمّ تعريف السخرية كالآتي: «سَخَرَ سِخْريًا وسُخْرِيًا، وسَخَّرَه: كلّفه عملا بلا أجرى، قهره وذلك، سَخِرَ سَخَرًا وَسَخْرًا وسُخْرًا وسُخْرَةٌ ومَسْخَرًا به ومنه: هزئ... تَسَخَّر واسْتَخَرَّه: كلّفه عملا بلا أجرى، وبه ومنه: هزئ به... السُّخرة من يسخر من الناس، السُّخريّ: السخريّة: الاسم من سَخَرَ، السِخْرِي: السُّخري: العمل قهرا وبلا أجرة، المِسْخَرَة: ما يُسْخَرُ منه...»[1]، نلاحظ أن هذا التعريف قريب من المفهوم السابق للسخرية عند الزمخشري، إذ أن معانيها تدور حول الهزء والقهر والتكليف بالعمل بلا أجرة.

ومن التعريفات السابقة للسخرية في المعاجم العربية يتبادر إلينا أن السخرية تحمل في ثناياها مجموعة من المعاني، وإن كانت كثيرة ومتعددة، إلا أنها متداخلة فيما بينها وتصب في المجال نفسه، فهي تعني الاستهزاء والتحقير والقهر والضحك وإخضاع الآخر، إذ إنها نوع من الفوقية.

والمعنى اللغوي لم يعطِنا معنى محددا للسخرية، لذا سوف نتطرّق إلى التعريف الاصطلاحي، ونرى أن كان هناك تعريف محدد لها.

ب- اصطلاحا:

تُعدّ السُّخرية مفهوما غزيرا بتعريفات كثيرة يمكن لها أن تتفق أحيانا وتختلف أحيانا أخرى. فقد عرّفها الدّكتور "شاكر عبد الحميد" في كتابه "الفكاهة والضحك" بقوله: «السخرية نوع من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي، الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل والحماقات والنقائض الإنسانية الفردية منها والجمعية؛ كما لو كانت عملية الرصد والمراقبة لها تجري هنا من خلال وسائل وأساليب خاصة في التهكم عليها، أو التقليل من قدرتها أو جعلها مثيرة للضحك أو غير ذلك من الأساليب التي يكون الهدف من ورائها محاولة التخلّص من بعض الخصال والخصائص السلبية»[2]، يقوم هذا التعريف بالسخرية على أنها أدب انتقادي، فهو وإن كان أدبا إلا أن وظيفته الثقافية والاجتماعية هي نقد للرذائل بمعنى أنه من جنس الأدب الملتزم، والسخرية لم توجد من أجل الإضحاك وفقط، وإنما لها وظائف معيّنة تسير عليها.

1- لويس معلوف، المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط.19، د.ت، ص.325.

2- شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، عالم المعرفة، الكويت، 2003م، ص.51.

أما "نبيل راغب" فقد عرّف السخرية بقوله: «السخرية في الأدب هي العنصر الذي يحتوي على توليفة درامية من النقد والهجاء والتلميح، واللماحية والتهكم والدعابة، وذلك بهدف التعريض بشخص ما أو مبدأ أو فكرة أو أي شيء وتعريته بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور فيه»[1]. يرى نبيل راغب في هذا التعريف أن السخرية عنصر أدبي درامي مركّب ومؤلّف من عدَّة مكونات تجعل منه أدبا ساخرا على غرار النقد والهجاء والتهكّم وغيرها، فكلها تشكّل السخرية.

كما يقف أيضا على الهدف منها، وهو التحريض؛ أي أنه يجعلها من الأدب الهادف، ويشير إلى موضوع السخرية، وأنه كما يمكن لها أن تكون شخصا يمكن لها أن تكون فكرة أيضا.

أما "شوقي ضيف" في كتابه "الفكاهة في مصر" فيحدِّد مفهومه للسخرية فيصفها: «بأنها أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر، وهي لذلك أداة دقيقة في أيادي الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم وهي حينئذ تكون لذعا خالصا»[2]، هنا يقف شوقي ضيف على تنوع أشكال ووسائل السخرية، فليست مختصّة بالأدب القولي، فقد تكون رسما مثلا، كما يشير إلى أمر مهم جدا وهو وظيفتها، فكما استعملها الفلاسفة والمصلحون لهدم الخرافة، استعملها الساسة لإسقاط خصومهم.

كما تجدر الإشارة إلى أن الهجاء هو الشكل الأبرز في السخرية في أدبنا القديم خصوصا النقائض التي دارت بين جرير والفرزدق والأخطل في العصر الأموي، وقد كان لها خلفيات سياسية خفية تحركها ولم تكن مجرد هزل وفقط.

ويرى بعض الباحثين أنّ السخرية هي: «طريقة من طرق التعبير يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة، وهي صورة من صور الفكاهة إذا استخدمها فنان موهوب بذكاء، وأحسن عرضها، تكون في يده سلاحا مميتا»[3]، فهذا التعريف

1- نبيل راغب، الأدب الساخر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2000م، ص.13.

2- المرجع نفسه، ص.22.

3- نزار عبد الله خليل الضمور، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مخطوط دكتوراه، جامعة مؤتة، الأردن، 2005م، ص.04.

يقف على البعد البلاغي للسخرية على أنها تلاعب بالأساليب لإيهام المتكلم إذ إنها تحول المعنى إلى عكس مقصود المتكلم.

ويعرّف "عبد الحليم حنفي" السخرية في كتابه "التصوير الساخر في القرآن" بقوله: «السخرية هي كل ما يؤدي إلى الاستهزاء والتحفيز، وليس لها صورة أو سلوك معين، فقد تكون بالإشارة أو بالقول أو بالفعل»[1]، فهنا يؤكد "عبد الحليم حنفي" على تنوّع وسائل السخرية مثل الإشارة والقول والفعل، وقد سبق أن من وسائلها أيضا الرسم خصوصا الكاريكاتوري.

وعرّفت "إنعام فوّال العكاوي" السخرية في قولها: «السخرية في الأدب اعتماد ألوان الهزء وصنوف الدعابة والهزل والمزاح في مقابل الجدية والترصن، وهي ميرة تحلى بها كثير من الأدباء على مر العصور، وأسلوب قلّما خلا أدب أمة من نهجه ومن بحث في دوافعه وغاياته والكشف عن مقوماته وأبعاده، والأدب الساخر تيار بارز في الآداب العالمية، وهو على اختلاف ألوانه يتّسم غالبا بروح النقد اللاذع إلى كونه في كلِّ حال مستحبا لما ينطوي عليه من جدٍّ عميق يستره الهزل الرقيق والهزء الرشيق»[2]، فالأدب الساخر لون من ألوان الأدب له قيمته وأهميته التي يستمدها من محتواه، ويعتبر هذا النوع من الأدب ميلا أو نزعة يتّخذه بعض الأدباء للتعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم ومشاعرهم ولكل طريقته في ذلك، ويعتبر البعض السخرية مذهبا يتّبعه ومنهجا يسير وفقه، همهم الوحيد إيصال أفكارهم لأكبر شريحة من القراء.

وممن تناولوا السخرية بالتعريف أيضا نجد (طاش كبرى زاده) في المطلب الأول من آفات اللسان، يقول: «ومن الآفات السخرية والاستهزاء ومعناها الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون بالمحاكاة في الفعل وفي القول وقد يكون بالإشارة والإيحاء»[3]، فالسخرية هنا تعني الهزء والتحقير والإهانة، غرض الساخر منها تحقيق الضحك والتفكه من المسخور منه، وقد تكون عن طريق فعل أو قول أو إشارة، ونرى هذا المفهوم قريب جدا من مفهوم السخرية عند عبد الحليم حنفي والذي تناولناه سابقا.

1- عبد الحليم حنفي، التصوير الساخر في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1992م، ص.14.

2- إنعام فوّال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة (البديع، والبيان، والمعاني) مراجعة أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، 1996م، ص.ص.578-579.

3- شعيب بن أحمد بن محمد عبد الرحمن الغزالي، أساليب السخرية في البلاغة العربية، دراسة تحليلية تطبيقية، مخطوط ماجستير في البلاغة والنقد، جامعة أم القرى، السعودية، 1414هـ، ص.10.

2- المفاهيم المرتبطة بالسخرية في الأدب:

كما يتّفق معظم الدّارسين أن السخرية ترتبط بالعديد من المصطلحات كالفكاهة والضحك والتهكّم، الهجاء، الدعابة، وغيرها، والتي قد نظن ظاهرا أنها عدّة مسمّيات لمصطلح السخرية، إلا أننا عندما نتعرّف على هذه المصطلحات سندرك الاختلاف بينها، وبداية سوف نتطرّق لمفهوم الفكاهة:

- الفكاهة:

الفكاهة نشاط اجتماعي يرويها شخص معين للآخرين من أجل الترفيه عنهم، وجاء تعريفها عند "عبد الحميد شاكر": «الفكاهة يمكن أن تكون استعدادا أو تهيؤا خاصا بالعقل، استعداد للبحث عن البهجة أو السرور واستكشافهما وإبداعهما أيضا، وكل ما يتعلّق بما نسميه حس الفكاهة»[1]، فالفكاهة هدفها إدخال السرور والبهجة في نفس المتلقي وغرضها الإضحاك، كما تدور معانيها حول المزاح والضحك والترفيه عن النفس.

إضافة إلى أن: «الفكاهة تهدف إلى التسلية والإمتاع، ودفع الملل عن القارئ وإراحة مكدود الذهن وبعث النشاط في نفسه...»[2]، فالغرض الوحيد للفكاهة هو الضحك وإحداث التسلية لدى القراء وإبعاد الضجر وإزالته.

- الضحك:

ورد تعريفه على النحو التالي: «الضحك عملية جسمية تتميّز بسيطرة حركة إيقاعية عليها تعتمد أساسا على نوع حركات التنفس الموجهة نحو الخارج، والتي تحدثها العضلات الصوتية»[3]، ومن هنا فالضحك مرتبط بالحركة الجسمية للإنسان، وفي تعبيراته الخارجية التي توحي بأنه يمارس فعل الضحك، كما تظهر في تعابير الوجه.

وتمّ تعريف الضحك في موضع آخر على أنه: «ظاهرة إيجابية وبناءة للروح المعنوية، ومثيرة للتفاؤل والبشر والانطلاق... والضحك في جوهره الحقيقي هو مجرد تعبير عن البهجة

1- شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، ص.14.

2- أحمد علي آل مريع عسيري، ذكريات علي الطنطاوي، دراسة فنية، مخطوط ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1419هـ، ص.350.

3- شاكر عبد الحميد، المرجع السابق، ص.19.

والسعادة»[1]، فالضحك إحساس داخلي ينبع من النفس البشرية كما أنه متعة ذاتية تعبر عن البهجة والسرور.

– التهكم:

يُعَرَّف التهكم على أنه: «شكل من أشكال الكلام أو الخطاب يكون المعنى المقصود منه غير المعنى المعبَّر عنه بالكلمات المستخدمة، وغالبا ما يأخذ هذا المعنى أشكال الهجاء والاستهزاء الذي تستخدم فيه تعبيرات هازئة ملتبسة كي تتضمن إدانة أو تحقيرا أو تقليلا ضمنيا مستترا من شأن شخص أو موضوع أو كليهما»[2]. فالتهكم قائم أساسا على الإخفاء والتظاهر، ي أننا نجعل الأمور على عكس ما تبدو عليه في الواقع، فإذا كانت تدل على كذا نبيّن أنها ليست كذلك.

إضافة إلى أن: «التهكّم طريقة أو خاصية مميّزة في التعبير، مزاج أو نغمة خاصة في النظر إلى الأشياء والشعور بها والتعبير عنها، طريقة تجمع بين الجدّ والهزل، مما قدي جعل الابتسامة تتّسع على شفاه السامعين أو القراء، ثم قد تتّسع هذه الابتسامة تدريجيا حتى تتحول إلى ضحك»[3]، فالجوهر الحقيقي لمفهوم التهكم يكمن أساسا في الاستهزاء بالغير من أجل تحقيق أو بالأحرى الحصول على لذّة مضحكة للسامع، وهذا الاستهزاء لا يكون مباشرا وإنما مخفيٌّ عن طريق الإشارة مثل النظرة المحتقرة أو قول يحطّ من قيمة الشخص.

– الهجاء:

ورد تعريف الهجاء على أنه: «موضوع من مواضيع الشعر غرضه تقبيح عمل فرد أو جماعة أو عادة من العادات أو مظهر من مظاهر الحياة وهو تعبير عن احتقار الشاعر للمهجو والرغبة في الحط من شأنه، والهجاء قديم قدم الإنسان نفسه نشأن حين اصطدم الإنسان بواقع من الكراهية والاشمئزاز»[4]، فالهجاء هنا فن من فنون الشعر العربي، يهدف إلى ذكر عيوب

1- نبيل راغب، الأدب الساخر، ص.53-54.

2- شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، ص.44.

3- المرجع نفسه، ص.47.

4- شمسي واقف زادة، الأدب الساخر أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، مجلة فصلية دراسات الأدب المعاصر، السنة الثالثة، ع.12، ص.109.

شخص ما أو جماعة، أو تصرّف منتشر واعتاد الناس على القيام به، إذ يسعى الهاجي إلى التقليل من شأن المهجو واحتقاره والاستهزاء به.

وفي السياق نفسه يرى الباحث "قحطان التميمي" في كتابه "اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري": «أن الهجاء تعداد للمعايب وكشف لبشاعة الرذائل والنقائص في الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية»[1]، فالهجاء يهدف إلى سلب الفضائل عن الشخص وإضافة الرذائل إليه قصد إضحاك المستمعين منه، وقد تمّ ترجمة الكوميديا عند العرب إلى الهجاء.

– الكوميديا:

أشارت الباحثة "فتيحة بالمبروك" من خلال تناولها لمصطلح الكوميديا بقولها أنّ: «الكوميديا عادة تسلط الأضواء على الجانب السلبي في الإنسان وتَسْتَخِفُّ من رعونة تصرفاته بسخرية مغلفة بالضحك، حيث يكون عنصر القدرة على الإضحاك عنصرا ضروريا إلى حد ما لتحقيق التوازن أو للتخفيف من وطأة السخرية، ومن ثمّ ينقد هذا العنصر المهرج من الغضب الاجتماعي»[2]، فالكوميديا مصطلح يوناني الأصل، يرمز إلى الحقل الدلالي نفسه للسخرية ويقع في مقابل التراجيديا، فهو نوع من الملهاة الساخرة التي تتخذ من الأفعال المضحكة موضوعا تمثيليا لها.

ويرى "شاكر عبد الحميد" في كتابه "الفكاهة والضحك" أن: «الكوميديا ترتكز على جوانب القصور والنقائص الخاصة بالإنسان؛ سواء كانت نقائض جسمية أو سلوكية أو أخلاقية أو اجتماعية، ومن بين هذه النقائص الجهل والحقد، البخل، الطمع... وغالبا ما تنتهي الأعمال الكوميدية نهايات سعيدة»[3]، فالكوميديا تركز على الأمور السلبية في حياة الإنسان وتتناولها في قالب من الضحك مثير للسخرية.

1- شعيب بن أحمد بن محمد عبد الرحمن الغزالي، أساليب السخرية في البلاغة العربية، ص.13.

2- فتيحة بالمبروك، خطاب السخرية ودلالته في الشعر العربي المعاصر، مخطوط دكتوراه في الأدب العربي، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014-2015م، ص.34.

3- شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، ص.56.

– الدعابة:

لقد عرّفت الدعابة على أنها: «لون من المزاح الخفيف يعمد إليه الأصدقاء أحيانا؛ أي أنه يحمل روح التبادل الاجتماعي مما يجلب المسرّة والضحك، فيعمدون فيها إلى الصور الساخرة المضحكة، وتصل أحيانا أخرى إلى حال الإدعاء الكاذب»[1]، فهذا التعريف للنكتة يشير إلى أنها نوع من المزاح الذي يجلب البهجة والسرور لمتلقيها، كما أنها تعتمد أحيانا على الكذب الذي يعدّ عنصرا مهما في إثرائها.

وتمّ تعريفها كذلك على أنها: «عبارة عن القدرة الخاصة على استثارة الضحك أو الابتسام لدى الآخرين من خلال بعض الملاحظات أو التعليقات التي تكشف رشاقة في تعبيرات تثير الابتسام والضحك»، فالدعابة من هنا هي مهارة أو كفاءة أو موهبة تؤهل صاحبها لإضحاك الآخرين بالوقوع على أمور هزلية غير ملاحظة لديهم وتحويلها إلى مشهد ساخر.

– النكتة:

عُرِّفَت النكتة بأنها: «نشاط لفظيٌّ شفهيٌّ إرادي يقصد من ورائه إحداث أثر سار لدى المتلقي»[2]، إذ إن هدفها الأساس هو غرس البهجة والسرور في نفس متلقيها. والنكتة كذلك هي: «شيء فكاهي يقال بطريقة معينة من أجل إحداث التسلية وإثارة الضحك، غالبا ما تكون في شكل لفظي شفاهي مختصر يجرب سرده أو حكايته خلال تفاعل اجتماعي مرح أو ساخر وتقوم على أساس المفارقة»[3]، فالنكتة أهم شيء فيها هو الإيجاز ثم طريقة الإلقاء، أي أن مصدر الضحك فيها هذين الأمرين مجتمعين.

– المفارقة:

ورد تعريف المفارقة عند "مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني" في رسالته "السخرية في شعر عبد الله البردوني" كالآتي: «المفارقة تقوم على إبراز التناقض بين وضعين متقابلين هما طرفا المفارقة، وتتبدى المفارقة في مظاهر شتى تتصل بالوجود وبالمجتمع والفرد، وتتمثل في أوجه

1- نزار عبد الله خليل الضمور، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص.42.

2- شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، ص.56.

3- المرجع نفسه، ص.55.

التناقض والتضارب والتنافر والتعارض والاختلاف والتعاكس، والتغاير والتباين والتجاوز، والتقابل بن طرفين: بين ما هو ظاهر وما هو باطن، أو بين ما يحدث وما يجب أن يحدث، أو بين ما هو حق وما هو زائف، أو بين الجد والهزل، كما تتبدى المفارقة بين المنطق واللامنطق، والمعقول واللامعقول، فالبناء المفارقي يكشف عن التعارض بين أطراف قد تبدو متعارضة، وعن اجتماع ثنائيات متضادة لا يجب أن تجتمع»[1]، فالأساس الذي تقوم عليه المفارقة هو الاختلاف والتعارض والتباعد وغيرها من المصطلحات التي تصب في المجال نفسه، إضافة إلى أنه معروف عن المفارقة أن الأمر فيها يأخذ منحيين أو مسارين مختلفين، كما تعني اجتماع أمرين لا يمكن لهما الاجتماع، فمثلا نقوم بمدح شخص ما ونذكر صفاته وخصاله الحميدة ومما نلبث قليلا فنقوم بالسخرية منه وذكر عيوبه وصفاته الذميمة، هذا ما يسمى بالمفارقة.

ومما سبق تناوله وتحليله في هذا المدخل المفاهيمي، نرى أن السخرية تنوعت وتعددت مفاهيمها من باحث لآخر، كما أنه لم يتناولها أحد بتعريف جامع محيط بكل أبعادها وعناصرها، فرغم جهود الدارسين ومحاولاتهم الإلمام بالمصطلح والتمكن منه، إلا أنهم عجزوا عن ذلك، ونراهم أقروا بذلك في بحوثهم ودراساتهم، وهنا يحضرنا قول "سليمان الشبانة": «رغم كثرة استخدام لفظ السخرية وجريانه على الألسنة وورودها في القرآن الكريم في أكثر من أحدا عشر آية، إلا أنها لم تحظ بتعريف جامع مانع»[2]، وربما يعود هذا العجز إلى كون السخرية فنا يتميز بالتغيير والحركة، كما توجد تعريفات أو مفاهيم أخرى قريبة من مفهوم السخرية كالضحك والفكاهة والتهكم والهجاء والكوميديا والدعابة والنكتة، وكلها مصطلحات تصبّ في المجال نفسه ألا وهو السخرية أو الفكاهة.

1- مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني، السخرية في شعر عبد الله البردوني، رسالة ماجستير، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، 1431هـ، ص.ص.161-162.

2- المرجع نفسه، ص.39.

الفصل الأول:

الأدب الساخر النشأة والتطور

1- السخرية في العصر الجاهلي.

2- السخرية في صدر الإسلام.

3- السخرية في العصر الأموي.

4- السخرية في العصر العباسي.

5- السخرية في العصر الأندلسي.

6- السخرية في العصر الحديث.

تمهيد:

إنه لمن الصعب تحديد تاريخ دقيق لنشأة مصطلح السخرية، لذا يمكننا القول إن: «السخرية قديمة قدم الإنسان لأنها قد تكون ترويحا عن النفس أو تسرية عن القلب أو استنكارا لما يقع أو هزءا وتندرا بالخصم»[1]، كما جاء في قصة سيدنا نوح عليه السلام حين أمر بصنع السفينة، وجمع من كل زوجين اثنين فَسَخِر منه قومه وقالوا إنه بالأمس كان نبيا واليوم أصبح نجارا، فكان جوابه حاملا الوعيد والتهديد عاقبة تكذيبهم[2]. قال تعالى: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾[3].

وفي هذا إشارة إلى أن السخرية نوع من الأذى الذي ألحقه الكفّار بأنبياء الله تعالى، ومنه يتجلّى لنا أن السخرية قديمة، ويعود ظهورها إلى ما قبل العصر الجاهلي.

1- السخرية في الأدب العربي:

تعد السخرية من أبرز المواضيع التي نالت اهتمام النقاد والدارسين على مرّ العصور، فقد تضمّن أدبنا العربي العديد من المواضيع والصور الساخرة التي ارتبطت بالفنون الأدبية الأخرى، أي أنها لم تبرز كشكل أدبي قائم بذاته؛ إذ نراها كثيرا ما ارتبطت بفن الهجاء «فالهجاء في الشعر العربي قديم منذ الجاهلية، وقد أوجدته المنافسات القبلية، كما أوجدته الحروب المستمرة بين القبائل وبطونها، فكانوا يقتتلون، وكانوا يتهاجون هجاءً مرا»[4]، فشوقي ضيف هنا يرجع بغرض الهجاء إلى جذوره ونشأته الجاهلية مع ربطه بأسبابه ودوافعه التي غذّته.

1-1- السخرية في العصر الجاهلي:

كان العرب في العصر الجاهلي: «يميلون للصراحة فكانوا أسرع الناس إلى الهجاء بالسبّ والقذف، أو بتسديد سهامهم مباشرة من غير خوف أو وجل أو تريث، فالشاعر يتكلم باسم

1- عبد الحليم محمد حسين، السخرية في أدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ط-1، 1988م، ص.64.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.ن.

3- سورة هود، الآية38.

4- شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط.8، د.ت، ص.162.

قبيلته، لذلك يتَّهم أعدائها ويستهزئ بهم ويسخر منهم، ويتندّر بهم مستغلا الظروف المناسبة لذلك، فهي فكاهات تهكمية عدوانية أقرب للهجاء بسبب الروح العدوانية التي استحكمت بينهم نتيجة الحروب المتتالية وشعور كل قبيلة بالتفوق والاستيلاء على غيرها فترفع من شأن القيادة الأخرى»[1]، هنا نرى أن السخرية في الجاهلية كان يتحكم فيها الرأي الجمعي أو القبيلة آنذاك، فإن كان هناك عدو للقبيلة فهو عدو للشاعر نفسه يسبه، ويهجوه، ويسخِّر شعره في سبيل الدفاع عن قبيلته ضدّ القبائل الأخرى المعادية، إضافة إلى أن العرب آنذاك كانت تعتمد على الشعر في حروبها اعتمادها على السلاح.

والهجاء هو اللون الساخر الذي شاع بواسطة قصائد الهجاء التي حفظها التاريخ، ورغم أن النثر سبق الشعر إلا أنه لم يجاريه في منزلته بين فنون التعبير والكلام، فكان الشاعر هو لسان القبيلة والمدافع عنها[2].

يقول النابغة الذبياني في هجاءه لبني قريع:

أُقارِعُ عَوفٍ لا أُحاوِلُ غَيرَها وُجوهُ قُرودٍ تَبتَغي مَن تُجادِعُ[3]

هنا النابغة الذبياني سَخِرَ من بني قريع بن عوف، حيث شتمهم وشبّه وجوههم بالقرود التي تبتغي التخاصم، كما كان هجاء الشعراء في هذا العصر: «يدور في معظمه حول الانتقاص من نسب المهجو والازدراء بمكانة القبيلة وإلصاق المخازي بها»[4]، وفي هذا الصدد يروى أن النجاشي هجا حسان بن ثابت فهجا حسّان قوم النجاشي، حيث يقول:

لا بَأسَ بِالقَومِ مِن طولٍ وَمِنْ عِظَمٍ جِسمُ البِغالِ وَأَحلامُ العَصَافِيرِ[5]

هنا يتبيّن لنا أن نوع هذه السخرية هي سخرية جسمية وأخلاقية، حيث سَخِرَ حسان من قوم النجاشي وأعاب عليهم طول أجسامهم وصغر عقولهم، إذ شبّههم بالحيوانات.

1- نزار عبد الله خليل الضمور، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص.16.

2- ينظر: كاظم المقدادي، السخرية في البرامج التلفزيونية، دار ميزوبوميات، بغداد، العراق، ط.1، 2014م، ص.50.

3- النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط.2/ د.ط، د.ت، ص.35.

4- فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط.1، 2008، ص.13.

5- حسان بن ثابت الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، تح. عبد أمهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، 1994م، ص.129.

إضافة إلى أن السخرية مرتبطة بالهجاء، بدونها يتحول الهجاء من فن قائم بذاته إلى مجرد شتم وسباب، هذا ما أكّده أبو الحسن الجرجاني في قوله: «فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل، وما اعترض بين التصريح والتعريض ولصوقه بالنفس، فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس لشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم»[1].

يشير هذا النص إلى معطى بلاغي مهم في ضبط غرض الهجاء حتى لا ينقلب إلى سب وشتم وفحش، لذلك عدّ أفصل الهجاء ما كان لاذعا ونزيها.

ويبدو ذلك حليا في قول "زهير بن أبي سلمى":

وَما أَدري وَسَوفَ إِخالُ أَدري أَقَومٌ آلُ حِصنٍ أَم نِساءُ؟

فَإِن قالوا النِساءُ مُخَبَّآتٍ فَحُقَّ لِكُلِّ مُحصَنَةٍ هِداءُ[2]

ففي بيتي زهير نموذج واضح شهير للهجاء الحاد النزيه، فقد حطّ من القبيلة دون أن يُفْحِش القول.

كما أن «طبيعة المجتمع الجاهلي أسهمت في ارتباط السخرية والفكاهة بالهجاء، بل يكاد يكون أحد نتائجهما لكون العربي حين يهجوا، كان يختار كل وسيلة تُعينه على النيل من خصمه خاصة، وأن شعار الانتصار والغلبة هو السائد في المجتمع الجاهلي، وما يحقق هذه الغلبة والانتصار هو التهكم والسخرية من مثالب الخصم»[3]، فهذا النص يقارب طبيعة الهجاء الجاهلي سوسيولوجيا، فيربطه بالمجتمع الذي يقوم على المنافرات والمشاحنات التي تغذي روح التهكم لإسقاط الخصم.

وقد عَرَف المجتمع الجاهلي ألوانا عديدة من الهجاء تمثّلت في الهجاء الشخصي، والهجاء السياسي، فأما الهجاء الشخصي فقد كان مثاره: «المنازعات الفردية والخلافات التي لابد أن تنشأ من احتكاك الناس وتعارض مصالحهم في بيئة تقوم على القتال والنزاع في سبيل الحياة،

1- مساعد بن سعد بن سعد بن ضحيان الذبياني، السخرية في شعر عبد الله البردوني، ص.36.

2- زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تح. علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1988م، ص.17.

3- نادية كتاف، خطاب السخرية في أدب العرب إبّان عصور القوة، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم الآداب واللغات، جامعة محمد الصديق يحي، جيجل، الجزائر، ع.22، جانفي 2019، ص.90.

ويميل الكثير من النقاد إلى الحط من قيمة هذا الفن في جملته واعتباره أحط أنواع الهجاء»[1]، ففي هذا النص إشارة إلى الهجاء الشخصي وبواعثه الاجتماعية كالخصومة مثلا، ثم نجد إصدار حكم قيمي على هذا الفن الهجائي يجعل منه أحط أنواع الفنون.

إضافة إلى أن بعض: «هذا الهجاء الشخصي يتّصل بالقبائل وما بينها من خصومات، فيكون الهجاء في ظاهره موجّها لشخص؛ وهو في حقيقته موجه للقبيلة ممثلة في هذا الفرد الذي هو زعيمها أو شاعرها»[2]، وذلك بناءً على التقليد القبلي في كون الذات الفردية تعبيرا عن الذات الجماعية.

أما الهجاء السياسي فيقصد به: «الهجاء الذي يقوم على العصبية للوطن فيهاجم كل ما يؤذيه أو يهدد كيانه، فالشاعر يعبّر عن جماعة هو أحدها، ولا يكاد يحسب شخصيته إلا في حدود هذه المجموعة التي يرتبط مصيره بها كل الارتباط، فهو ينفي فيها وجوده، ويتجرد من نزعاته وأهوائه، ليحس بأحاسيسهم ويرى بأعينهم، ويسمع بآذانهم»[3]، فالهجاء السياسي نوع من الدفاع عن الوطن والعصبية له، والغيرة عليه ضدّ هجمات الأعداء، فهو من الشعر السياسي وإن كان غرضه تقليديا.

كما يعتمد هذا النوع من الهجاء على التأريخ والأنساب، إذ إن الشاعر يؤرّخ للحياة العربية في الصحراء، فنرى الشاعر أشبه بالمؤرخ، فيصور مجد قبيلته وبعدها يؤرخ ضعف أعدائهم[4]، أي أن هذا النوع يقوم على معرفة الشاعر بأيام العرب وأنسابهم، حتى يذكر معايبهم ويهجوهم بها فيتداخل المؤرخ بالشاعر.

كما عرف العرب سخرية أخرى هي الذم في صيغة المدح، حيث يعرِّف "ابن أبي الإصبع" هذا النوع من الهجاء: «هو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجهة ظاهرها المدح وباطنا القدح»[5]، فيوهم المهجو أنه يمدحه في حين أنه يهجوه، وهذا النوع من الهجاء هو: «هجاء اجتماعي خال من السب والشتم ممزوج بشحنة عاطفية متدفّقة يملؤها

1- محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميز، الإسكندرية، مصر، د.ط، 1947م، ص.95.
2- المرجع نفسه، ص.96.
3- المرجع نفسه، ص.111.
4- ينظر: محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميز، ص.117.
5- شعيب بن أحمد بن محمد عبد الرحمن الغزالي، أساليب السخرية في البلاغة العربية، ص.162.

التذمر لحال قومه من جهة، والغضب والسخط على حياة الذل والهوان التي كانوا يعيشونها من جهة أخرى»[1]، إضافة إلى أن هذا الهجاء «ربما يكون أقل حدة وأخف وطئة على نفس المهجو لأنه يأتي بشكل غير مباشر»[2]، ويحضرنا في هذا المقام قول قريط بن أنيف العنبري في قومه:

لكنَّ قَومِي وإنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيسُوا مِنَ الشَرِّ في شَيءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزَونَ مِنْ ظُلمِ أَهلِ الظلمِ مَغفرةً ومِن إســـاءَةِ أهلِ السوءِ إحْسانا
كأنَّ رَبَّكَ لَمْ يخلق لِخَشْيَتِهِ سِوَاهُم مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانًا
فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْماً إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الإِغَارَةَ، فُرْسَانًـا وَرُكْبَانًا[3]

فالشاعر هنا ذكر الخصال والصفات الحسنة التي يتميز بها قومه في الأبيات الأولى، ليعود في البيت الأخير ويلصق بهم صفة الضعف والهوان.

ومما سبق عرضه وتحليله، فالهجاء كان من أبرز صور السخرية في العصر الجاهلي، إضافة إلى أنه في هذا العصر «وردت أمثلة قليلة لا تبين صور السخرية وطبيعتها، ولا تدلّ على قلّتها أو نفيها لضياع الكثير من الشعر والنثر في فترة ما قبل الإسلام»[4]، وما وصلنا منه كان قليلا ويسيرا للغاية، يقول الدكتور "نعمان طه": «لا يمكن القطع بأن السخرية كانت لديهم قليلة أو ضعيفة ولكنها ضاعت مع هذا الشعر وهذا النثر الذي ضاع لم يصلنا منه إلا القليل»[5]، وفي هذا إشارة إلى معطى مهم حول ضياع التراث الجاهلي وبسببه ضاع الكثير من الهجاء لذلك لا يمكن رسم صورة دقيقة للمشهد الهجائي وللسخرية آنذاك.

1-2- السخرية في صدر الإسلام:

مع ظهور الإسلام تغيّرت الكثير من القيم الجاهلية التي كانت سائدة آنذاك من صراعات ونزاعات وقد حلّ محلها القيم الإسلامية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا ما

1- شمسي واقف زادة، الأدب الساخر أنواعه وتطوره عبر العصور الماضية، ص.112.
2- مشتوب سامية ، السخرية وتجلياتها في القصة الجزائرية المعاصرة ، مخطوط ماجستير في اللغة والأدب العربي،جامعة مولود، معمري ، تيزي وزو ، 2011م ، ص.12.
3- الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ج.1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 2000م، ص.21.
4- نزار عبد الله خليل الضمور، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص.16.
5- نادية كتاف، خطاب السخرية في أدب العرب إبّان عصور القوة، ص.91.

أدى إلى «تراجع فن السخرية خاصة وأن الإسلام نهى عنها في عدة مواضع من القرآن الكريم، لكنها عادت للظهور من جديد مع عودة الهجاء والمنافرات»[1]، فقد كان «شعراء قريش ومن وَالاَهُم يهجون النبي وأصحابه وكان شعراء الأنصار يناقضون هذا الهجاء، ولعل ذلك كان أول عهد للنقائض في الشعر العربي، ولعل تلك الروح هي التي أنهضت هذا الفن من القول فازدهر في العصر الأموي ازدهارا تاما»[2]، فالسخرية في هذا العصر تراجعت نوعا ما عمّا كانت عليه في العصر الجاهلي، إذ إن القرآن الكريم كثيرا ما نهى عنها، واعتبرها إثما لا يجوز قوله والتلفظ به، لكنها سرعان ما عادت للظهور كون الكفار والمشركين أخذوا في هجاء الإسلام والمسلمين، فقريش جنّدت كل شعرائها للسخرية وقذف الدعوة المحمدية.

وهذا النوع من السخرية الذي يقصد به الاحتقار والاستصغار بغير سبب ظاهر أو مقنع هي محرمة ومنهي عنها بالنص القرآني[3]، قال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ**﴾[4]. ففي هذا الموضع نهى القرآن الكريم عن السخرية كونها تستهين بكرامة الإنسان، وتحطّ من شأنه فهي تجرح المسخور منه وتؤذي شعوره.

أ- السخرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

في عهده صلى الله عليه وسلم كانت هنالك خصومة شديدة بينه وبين المشركين، فقد «حردوا عليه الأسنة والألسنة، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية، وبين محمد وقريش، فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القريشيون، وقد كانوا قلالا قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة، فصاروا كثرا بعده لدواعي النزاع والمعارضة، منهم عبد الله الزعبري، وعمرو بن العاص، وأبو سفيان، فأذو الرسول بهجائهم، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودّوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم، فما هو إلا أن قال لهم (ماذا

1- مشتوب سامية، السخرية وتجلياتها الدلالية في القصة الجزائرية المعاصرة، ص.13.

2- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، السعودية، د.ط، 2004م، ص.41.

3- ينظر: عبد الحليم محمد حسين، السخرية في أدب الجاحظ، ص.65.

4- سورة الحجرات، الآية11.

يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟) حتى نهض للقريشيين نفر من الصحابة بمن فيهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وشنوها حربا كلامية سائرة على النمط الجاهلي من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد»[1]، ومن هنا فإن الحرب الكلامية التي نشبت بين المسلمين والمشركين قد تمثلت في الشعر، فقد كان مجموعة من الشعراء المسلمين على رأسهم حسان بن ثابت، قد سخّروا شعرهم لنصرة الدعوة الإسلامية وسعوا لحماية أعراض المسلمين من هجوم خصومهم باللسان، فالشعر آنذاك كان سلاحا مهما أدى دورا كبيرا في خدمة الإسلام والدفاع عنه.

فحسّان بن ثابت الأنصاري كان يطعن في أحساب وأنساب المشركين ويرمي سهامه الشعرية في المناطق التي تخدش كرامتهم وتهزّ نفوسهم، ومن أبياته السخرية، سخريته من قبيلة بني المغيرة، يقول:

سَأَلتُ قُرَيشاً فَقَد خَبَّروا وَكُلُّ قُرَيشٍ بِكُم عالِمُ
فَقالَت قُرَيشٌ وَلَم يَكذِبوا وَقَولُ قُرَيشٍ لَكُم لازِمُ
عَبيدٌ قُيونٌ إِذا حُصِّلوا أَبوكُم لَدى كيرِهِ جاثِمُ[2]

إضافة إلى هجاءه أبا جهل، حيث يقول:

مَشؤُومٌ لَعينٌ كانَ قِدماً مُبَغَّضاً يُبَيِّنُ فيهِ اللُؤمَ مَن كانَ يَهتَدي[3]

هذه نماذج واضحة تبين صور السخرية في هذا العصر، وخاصّة عند حسان بن ثابت الذي عرف بهجاءه لأعداء الإسلام وطعنهم في أنسابهم.

ومن الجديد في هجاء هذا العصر تعيير المشركين بالكفر وعبادة الأوثان وارتكاب ما يحظره الإسلام، كما في شعر عبد الله بن رواحة من الأنصار، فكان هجاءه أهون الهجاء على مشركي مكة ولكن كان أشد عليهم بعد إسلامهم[4]، إذ حزّ ذلك في قلوبهم كثيرا.

1- أحمد حسين الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ص.103.

2- عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 2008م، ص.284.

3- حسان بن ثابت الانصاري، ديوان حسان بن ثابت، ص.93.

4- عبد العزيز شرف، الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، ط.1، 1992م، ص.81.

فقد كانت قريش ترى أن حسان بن ثابت: «أعظم الشعراء الخصوم، ويرون معانيه أحدّ من معاني أي أنصاري آخر، ويرون أن الهجاء المقذع المرّ ما تعرض للحرم والأنساب لا ما تعرّض للعقيدة والدين»[1]، وقد كانت هذه الرؤيا سائدة قبل إسلامهم ذلك لأن العقلية الجاهلية كانت لا تزال مسيطرة على عقول الشعراء المشركين، فبمجرد أنهم أسلموا رأوا أن أحدّ الهجاء ما تناول الدين والعقيدة وما عيّرهم بكفرهم وعبادتهم للأصنام والأوثان، وهذا ما تناوله عبد الله بن رواحة في معظم أشعاره ضد قريش.

ب- السخرية في عهد الخلفاء الراشدين:

هنا نخصُّ بالذكر عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد روي أن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر بقصيدة جاء فيها:

دَعِ المكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها وَاِقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكَاسِي[2]

فنوع هذا الهجاء هو هجاء فردي توجّه به الشاعر إلى الزبرقان وسخر منه.

فالزبرقان استدعى عمر بن الخطاب، وعرض عليه هذا البيت، ففسّره عمر على أنه مجرّد معاتبة لا هجاء كراهة، لكن الزبرقان صعب المراس أنكر ذلك، فبعث عمر في طلب حسان ليستشيره في هذا البيت، فقال له حسان: (لم يهجه ولكن سلح عليه)، وهذا اعتراف من حسان أن البيت مؤلم، فأدى ذلك لحبس الحطيئة، وهذا الحكم دليل على تقدير شعر الحطيئة وإفصاح عن قوة معانية وشدة إيلامه للنفوس[3]، وقد عُدَّ هذا النوع من الهجاء هجاءً مقذعا نهى عنه الإسلام واعتبره إثما كبيرا لا يجوز قوله وتناوله، وقد فسّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا النوع من الهجاء: «حين أطلق الحطيئة من سجنه بسبب هجائه للزبرقان بن بدر عندما قاله له: إياك والهجاء المقذع، قال وما المقذع يا أمير المؤمنين؟ قال المقذع: أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء،

1- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص.31.

2- الحطيئة العبسي جرول أبو مليكة، ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1993م، ص.19.

3- ينظر: طه أحمد إبراهيم، المرجع السابق، ص.36.

وأشرف، وتبني شعرا على مدح لقوم وذم لمن يعاديهم»[1]، وفي هذا إشارة إلى أن تفاخر الشاعر بنسبه ومدحه لقبيلته والسخرية من القبيلة المعادية وهجائها هجاءً مرا عنيفا منهي عنه في الإسلام، لذا وجب اجتناب هذا النوع من السخرية والهجاء والابتعاد عنها قدر الإمكان.

إضافة إلى ذلك فقد ظهر في هذا العصر الهجاء الديني: «الذي سار في أسلوبه على سبيل الجاهلية وشعرها فاعتمد على الأنساب والقبيلة وحماية الجار والدفع إلى الثأر وذمّ الجبن والعورات والمثالب، وأضاف إلى ذلك ما قام في الدين الجديد من تعبير بالشرك ومخالفة أوامر الله وعبادة الأوثان والتهديد والوعي بنار جهنم والعذاب فيها، فاستفادوا من القرآن الكريم وأخذوا من معانيه وآياته في هذا الباب، فقد سبق القرآن إلى هذه الحرب، وهذا الوعيد، فكان المعلم العظيم في الهجاء الديني»[2]، فالشعراء المسلمون سخروا من المشركين وعبادتهم لما لا يضر ولا ينفع، فاقتبسوا من القرآن الكريم مجموعة من المعاني واستخدموها في شعرهم فأصبحت السخرية أسلوبا وسلاحا مهما لنصرة الدعوة الإسلامية، إذ اعتمدوا في ذلك على التهديد والوعيد ووصف خصومهم بالسفه والطيش.

ومما سبق تناوله نرى أن عصر صدر الإسلام حفل بالسخرية والهجاء كثيرا، وعُدَّ الهجاء الجاهلي إثما كبيرا لا يجوز قوله والتحلي به، خاصة المقذع منه، كما ظهر في هذا العصر الهجاء الديني الذي استخدمه الكثير من الشعراء أمثال حسان بن ثابت، وذلك لخدمة الدعوة الإسلامية والدفاع عن الإسلام ضد المشركين وأعداء الإسلام، فقد كانت قريش تهجو النبي وأصحابه، وكان أصحابه يردون عليهم بالمثل، وهنا نشبت حرب كلامية بين الطرفين، وبإسلام قريش وباقي العرب سكتت الألسنة اللاذعة قليلا.

1-3- السخرية في العصر الأموي:

عرف الشعر في العهد الأموي تألقا واضحا، حيث: «أصبح الأداة الفاعلة للدفاع عن الأحزاب التي نشأت في هذا العصر وقويت، وأهمها الحزب العلوي والأموي وحزب الخوارج، كان

1- ينظر: عبد الخالق عبد الله عودة عيسى، السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، مخطوط دكتوراه في اللغة والأدب العربي، الجامعة الأردنية، الأردن، 2003م، ص.04.

2- محمد سامي الدهان، الهجاء، دار المعارف، القاهرى، مصر، ط.3، د.ت، ص.70.

لكل حزب سياسته الخاصة، فانبرى الشعراء يدافعون عنه ويهجون أعداءه»[1]، وهنا بلغت السخرية أوجها إذ إنها ارتبطت بالسياسة، إضافة إلى ارتباطها بفن الهجاء.

كما كان لكل حزب شعراءه الذين يدافعون عنه ويتصدون للخصوم، ويرون أنهم الأفضل ودوما على صواب في ما يخصّ الجانب السياسي والعقدي، إضافة إلى هذه الأحزاب «ظهرت العصبيات القبلية، ونمت الصراعات بين القبائل اليمنية والشمالية، كذلك ظهرت عصبيات جديدة أطلق عليها الشعوبية أي الصراع بين العرب والعجم الذين كثروا وارتفع شأنهم»[2]، حيث كانت هذه أبرز التحوّلات التي حدثت آنذاك.

وفي هذا العصر «كانت القبائل تجتمع وتحتشد في المربد والكناسة حول الشعراء، يستمعون منهم وينشدون في الهجاء، وكأنهم وجدوا في ذلك لهوا لهم وتسلية حينئذ يتحوّل الهجاء من فن وَقْتِي متقطّع إلى فن دائم مستمر»[3]، ففي العصر الأموي تغيّر الهجاء عمّا كان عليه في الجاهلية إذ تحوّل من هجاء متقطّع غير منتظم يظهر من حين إلى آخر إلى هجاء مستمر ومتّصل فَرَضَته طبيعة العصر عصرئذٍ.

ويرى "شوقي ضيف" في كتابه "التطور والتجديد في الشعر الأموي" أنّ «الهجاء تحوّل تحت تأثير هذا التطور في حياة العرب إلى فن جديد وهو فن لا نشك أنّ له بذورا قديمة؛ ولكنه الآن أصبح شيئا آخر، أما من حيث الغاية فقد أصبح يراد به اللهو لا الجد، كما كان الشأن في القديم، وأما من حيث الصورة فقد أخذ يختلف وجوها كثيرة من الاختلاف، إذ أصبح ينشد يوميا وأصبح الشعراء يحترفونه احترافا»[4]، فالسخرية آنذاك كان هدفها التسلية والإضحاك، كما أخذت صورا جديدة لم يألفها العربي من قبل.

إضافة إلى أن الهجاء في هذا العصر تحوّل إلى حرفة على يدي شعراء النقائض أمثال الأخطل وجرير والفرزدق والراعي النميري... إذ يسعى هؤلاء إلى التقيّد بقوانين محدّدة في نظم قصائدهم «وشغل هذا الفن –النقائض– حيّزا مهما في عصر بني أمية، كان كرجعة جاهلية

1- سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي، ص.26.
2- المرجع نفسه، ص.26.
3- شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص.163.
4- المرجع نفسه، ص.164.

عنيفة غلب عليها تقابل المعاني وقلبها. وشيوع الهجاء الصريح والمقذع وعاد التفاخر بالأنساب وذكر الحروب القديمة...»[1]، ومن هنا فإن النقائض كانت من أبرز العوامل التي ساعدت على تفشي الهجاء والسخرية اللاذعة ورواجها بين الناس.

والنقائض تعني أن «ينظم الشاعر قصيدة هجائية فيلجأ الآخر إلى الردّ عليها ملتزما نفس البحر والقافية والروي والموضوع، وكل شاعر يلصق بالآخر وبقبيلته معاني الضعف والهوان، كل ذلك في سبيل العصيان السياسية والمنفعة الفردية، كما أصبح الشعر باب رزق يتكسب به الشاعر لدرجة أن بعض الشعراء بلغوا مرتبة كبيرة من الثراء»[2]، وهذه القصائد التي نظمها الشعراء في هذا الباب سارت على النهج القديم من تناول الأنساب والحروب والانتصارات... كما تناولوا التاريخ الإسلامي والقضايا السياسية المرتبطة بخلفاء الدولة الأموية بهدف إضحاك الجماهير وإلهائها.

وبالتالي فإن النقائض «غرضها الأساسي الرغبة في إعجاب الجماهير من الخصوم وغيرهم، فلم يعد غرضه إرضاء القبيلة»[3]؛ إذ إن الشاعر عندما ينظم قصيدة النقائض فهو يسعى لنيل رضا الجمهور عكس العصر الجاهلي الذي كان همّه إرضاء القبيلة.

كما انتشرت في العصر الأموي مجالس اللهو والمجون، وانصرف الشعراء إلى الاهتمام بالخلافة وكتابة الشعر السياسي إضافة إلى «انتشار مجالس الطرب والغناء التي صاحبها الانغماس في حياة العبث واللهو في بيئة الحجاز بشكل خاص بسبب سياسة الدولة الأموية في صرف أهلها عن الاهتمام بالخلافة والسياسة بما أغدقته عليهم من أموال وعطايا، أدى هذا إلى انصراف شباب الحجاز إلى حياة اللهو فكان الطرب والغناء والمجون...»[4]، وهذا كله أدى إلى انتشار السخرية والفكاهة بنطاق واسع من أجل الترفيه وتمضية الوقت.

ويعدّ الشاعران جرير والفرزدق من أهم شعراء العصر الأموي، واللذان دارت بينهما مناظرات هجائية اطلق عليها اسم النقائض، حيث إن جرير في ديوانه، تناول السخرية والهجاء،

1- سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي، ص.26.

2- المرجع نفسه، ص.27.

3- شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص.164.

4- نادية كتاف، خطاب السخرية في الأدب العربي إبان عصور القوة، ص.92.

فلا يرحم النساء ولا يشفق على شرفهن ولا يبالي حينما يمسّ بكرامتهن وعرضهن إذ يسعى لتصوير المهجو في أسوء صورة تجعل الآخرين ينظرون له نظرة سخرية واحتقار[1]، حيث يقول في نساء تغلب قبيلة الأخطل:

نِسوانُ تَغلِبَ لا حِلمٌ وَلا حَسَبٌ وَلا جَمالٌ وَلا دينٌ وَلا خَفَرُ[2]

فالشاعر في هذا البيت ينزع من نساء تغلب كل صفة حميدة، إذ يجرّدهن من العقل والشرف والجمال والدين ويصوّرهن في أسوء صورة تجعل الناس يبغضونهن، ويكُنّ محط سخرية في نظرهم.

إضافة إلى الفرزدق: «الذي لم يكن أقل سلاطة من جرير حين يصف النساء في هجاءه فيصور قوم جرير وقد استسلمت النسوة لكل شعب، وسكنت لكل مغير، فضاع الشرف وتاه الحسب، واستيقظت الشكوك والريب»[3]، حيث يقول في هذا الشأن:

وَتُمْسِي نِسْوَةٌ لِبَنِي كُلَيْـــبٍ بِأَفْوَاهِ الأَزِقَّةِ مُقْعَيَات

يَبِعْنَ نُفُوسَهُنَّ بِكُلِّ فِلْسٍ كَبَيْعِ السُّوقِ خُذْ مِنِّي وَهَاتِ[4]

فالفرزدق في هذه الأبيات يسخر من نساء قبيلة كليب، ويرى أنهن يعرضن شرفهن كعرض السلع في السوق ويبعن أنفسهن بأبخس الأثمان، فالشعراء في هذا العصر وجدوا في الإفحاش بنساء قبيلة الخصم مادة يستقون منها سخرياتهم من أجل الحطّ من قيمة الخصم وإذلاله والاستهزاء به.

إضافة إلى الأخطل الذي يقول في قبيلة كليب، قبيلة جرير:

خَفَّ القَطينُ فَراحوا مِنكَ أَو بَكَروا وَأَزعَجَتهُم نَوىً في صَرفِها غِيَرُ

أَمّا كُلَيبُ بنُ يَربوعٍ فَلَيسَ لَهُم عِندَ المَكارِمِ لا وِردٌ وَلا صَدَرُ[5]

1- ينظر: محمد سامي الدهان، الهجاء، ص.15.

2- جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1986م، ص.201.

3- محمد سامي الدهان، المرجع السابق، ص.16.

4- إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، ج.1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط.01، 1983، ص184.

5- الأخطل غياث بن عوث بن طارقة أبو مالك ، ديوان الأخطل، شرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، 1994م، ص.100-109.

فهذه الأبيات هي نوع من الشعر السياسي سعى فيها الأخطل إلى مدحه للأمويين وحكمهم حيث بدأها بالغزل، ثم هاجم من يعاديهم وقلّل من شأنهم وهم قبيلة جرير.

ومن هنا فقد شكّلت السخرية في العصر الأموي مادة فنية في العديد من نماذجه، كما نما غرض الهجاء في هذا العصر نموا واضحا، حيث احترفه شعراء النقائض عل رأسهم جرير والفرزدق والأخطل، ونذكر نموذجا واضحا لشعر النقائض بين هؤلاء الثلاثة، يقول الفرزدق:

أَنَا القِطرانُ والشعــراءُ جَرْبَى وَفِي القطْــرَانِ لِلْجَرْبَى شِفَاءُ[1]

فرد الأخطل:

إِن تَكُ زِقَّ زامِلَةٍ فَإِنِّي أَنَا الطَّاعُونُ لَيسَ لَهُ شِفاءُ[2]

فرد جرير:

أَنا المَوتُ الَّذي آتي عَلَيكُم فَلَيسَ لِهــارِبٍ مِنّي نَجــاءُ[3]

ففي هذه الأبيات عمد الشعراء الثلاثة إلى الردّ على بعضهم ملتزمين في ذلك نفس البحر والقافية والروي، كما سعوا إلى السخرية والاستهزاء بالخصم وإلصاق مجموع الصفات الدنيئة به وبقبيلته.

1-4- السخرية في العصر العباسي:

شهد العصر العباسي اختلافا كبيرا في طبيعة المجتمع عما سبقه من عصور «فقد أدى اختلاط العرب بالأجناس الأخرى إلى تطور المجتمع من جميع نواحيه، وظهور أنماط حياتية جديدة لم يألفها العرب من قبل، كما ازدهرت العلوم وانتشرت مثل علم الكلام والفلسفة وعلوم الدين وعلوم العربية وغيرها...»[4]، هذه المظاهر وأخرى أدت إلى تطور الحياة العباسية في مختلف المجالات، إضافة إلى ظهور تيار الزهد والمجون والزندقة «فقد عكفت فئة عن ملذات الدنيا

1- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي، مصر، ط.1، 1353هـ، ص.07.

2- الأخطل غياث بن عوث بن طارقة أبو مالك ، المصدر السابق، ص.19.

3- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق، ص.07.

4- نادية كتاف، خطاب السخرية في أدب العرب إبّان عصور القوة، ص.93.

وانغمست فئة أخرى في حياة اللهو والمجون، وانتشر تيار الزندقة والشك في الدين وشاع الفقر والحرمان، وبالمقابل انتشر الغنى وتكدّست الأموال لذوي السلطة والجاه، وظهرت فئة الشعوبية وجاهرت بعدائها للعرب وحرصت على إلصاق المساوئ بهم، وحاولت تشويه كل ما هو عربي... وفي المقابل أيضا كان هناك تيار آخر يدافع عن العرب وينفي عنهم كل ما ألحقه بهم الشعوبيون كذبا وزورا...»[1]، ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا أن الهجاء والسخرية التي كانت سائدة في العصور القديمة عادت للظهور من جديد في هذا العصر، لكن بحلة جديدة لم يألفها العرب سابقا، ففي القديم كان الهجاء متبادلا بين القبائل وبين الأحزاب والمذاهب، حيث كان بين العرب والعرب، لكن في هذا العصر تطوّر ليتناول الصراع بين العرب والعجم، خاصة الفرس منهم، وهو ما أطلق عليه بمصطلح الشعوبية.

وفي ظل هذا التغيير الذي مسّ المجتمع العباسي، أدى ذلك لتأثر الشعر أيضا، حيث استجاب لهذه المؤثرات وتطور بتطورها، وهذا التطور يختلف من فن لآخر، والهجاء لشدة ارتباطه بالنفس كان أسرع الأغراض الشعرية استجابة لهذا التطور[2]، إضافة إلى أن السخرية «أحد وسائل التنفيس ونتيجة لذلك تعددت أنواع السخرية في هذا العصر فمن سخرية جادة حزينة إلى السخرية الحكمية أو الحكمة الساخرة، وفيها يتّبع أسلوب فلسفي ساخر، كما عرف عند ابن المقفع، الذي استخدمه ليكون في السخرية والنصح في آن واحد... وقد ظهر ذلك جليا في كتابه كليلة ودمنة»[3]، فكليلة ودمنة كما نعلم كتبت على لسان الحيوان وفيها عبّر الكاتب عن موقفه اتجاه الواقع المعيش، خاصة الواقع السياسي، فكان الكُتَّاب آنذاك يخشون الإفصاح عن أفكارهم السياسية خاصة، فلجؤوا إلى هذه الطرق من التعبير.

وفي العصر العباسي ظهر نوع جديد من السخرية هو : «السخرية التي تعمد إلى التقاط العيوب وتصويرها ونقضها بطريقة مضحكة، ولا يعني ذلك عدم وجود بعض الأبيات الساخرة قبل العصر العباسي، فقد عرف هذا اللون عند الحطيئة وجرير وغيرهما... لكن في حدود ضيقة،

1- نادية كتاف، خطاب السخرية في أدب العرب إبّان عصور القوة، ص.93.

2- ينظر: عبد المنعم إبراهيم الحاج محمد، الهجاء في العصر العباسي الثاني، دراسة تطبيقية تحليلية في شعر البحتري وابن الرومي وابن المعتز، مخطوط ماجستير في الأدب والنقد، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2008م، ص.35.

3- نادية كتاف، المرجع السابق، ص.ن.

ومع ذلك فإن ظاهرة السخرية وانتشارها في أدبنا العربي لم تبدأ بوضوح إلا ببداية المرحلة العباسية»[1]، وعرفت هذه الظاهرة كثيرا لدى الكتاب العباسيين من أبرزهم الجاحظ، فقد ظهر هذا النوع من السخرية في معظم مؤلفاته، وخاصة كتاب البخلاء والحيوان، ورسالة التربيع والتدوير، إذ إن سخريته في هذه المؤلفات «قائمة على العقل، حيث تتدخل فيه الصنعة ويتصرف فيها باللجوء إلى أساليب المكر والحيلة، واستعمال الذكاء والخيال، لتحويل الشخص المسخور منه أو الشيء المقصود بالتفكك إلى أضحوكة، بعد أن يقع أثرها على نفس المتلقي لهذه الآثار الأدبية، وعلى نفس الذي يكون هدفا للسخرية»[2]، فالجاحظ أبدع وساهم في تطوير السخرية وازدهارها في هذا العصر، كما تناول بسخرياته مختلف المواضيع، وانتشر تيار السخرية وطغى على معظم كتاباته.

كما استعملت السخرية في هذا العصر ألفاظا ومعاني بسيطة، ولغة تقترب من لغة العامة، بعيدة كل البعد عن الجزالة والرصانة[3]، ويتجلى ذلك في قول أبي الشمقمق وهو يسخر من بشار بن برد:

هَلِّلِينَه هَلِّلِيْنَه طَعْن قُثَاةٍ وَتِينَه

إِنَّ بَشَارَ بْنَ بُرْدٍ تَيْسٌ أَعْمَى فِي سَفِينَه[4]

فالشاعر في هذه الأبيات لغته تكاد تكون بسيطة مفهومة لدى عامة الناس، كما اعتمد على التكرار لتأكيد الفكرة المطروحة في الأبيات.

ومن مظاهر التجديد التي ظهرت في العصر العباسي التمرد على المقدمة الطللية حيث يقول أبو نواس في هذا الصدد:

دَعِ الأَطلالَ تَسفيها الجَنوبُ وَتُبلي عَهدَ جِدَّتِها الخُطوبُ

وَخَلِّ لِراكِبِ الوَجناءِ أَرضاً تَخُبُّ بِها النَجيبَةُ وَالنَجيبُ

1- عبد الخالق عبد الله عودة عيسى، السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، الجامعة الأردنية، الأردن، 2003م، ص.05.

2- نادية كتاف، خطاب السخرية في أدب العرب إبّان عصور القوة، ص.93-94.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص.94.

4- مروان بن محمد أبو الشمقمق، ديوان أبو الشمقمق، تح. واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1995م، ص.18.

وَلا تَأخُذ عَنِ الأَعرابِ لَهواً وَلا عَيشاً فَعَيشُهُم جَديبُ[1]

فالشاعر في هذه الأبيات سخر من شعراء عصره الذين لازالوا يبدؤون قصائدهم بالمقدمة الطللية، حيث ثار على هذه المقدمة، غير أن ثورته هذه لم تكن على التقاليد الشعرية والفنية القديمة، إنما كانت رفضا للتقيد وسيطرة الماضي على الحاضر، فأبياته تمثل دعوة واضحة للتجديد والإبداع في الجانب الفني خاصة[2].

بالإضافة إلى الشاعر بشار بن برد الذي اتّسمت سخريته وهجاءه بالفحش، حيث أنه ذكر الأم والأخت والأسرة في شعره بصفات تتقزز النفس من سماعها، إذ يقول:

لِنساءِ الزِنجِيّ فيمَن يُصَلّي صَدَقاتٌ فَضَحنَ بِنتاً وَأُختا[3]

فالشاعر في هذه الأبيات يصف الأم والبنت في حالة لا ترضي ولا تسر، ويسرف في الوصف حتى يذكر ما يقع لهذه المسكينة فيصور أهلها نياما ويتخيلها مع الريب تسير في كل درب[4]. وزميله أبو نواس مثله في هذا الباب لا يكاد يُقَصِّر في تناول الأم والأخت وبفحش في القول، ويبدو ذلك جليا في معظم أشعاره.

كما ارتبطت السخرية بالسياسة ارتباطا شديدا، استهدفت الأمراء والخلفاء، ومن ذلك قول أحدهم ساخرا من الأمين وحاشيته لما أراد المبايعة لابنه موسى:

أَضاعَ الخِلافَةَ غِشُّ الوَزير وَفِسقُ الإِمامِ وَجَهلُ المُشير
فَفَضلٌ وَزيرٌ وَبَكرٌ مُشيرٌ يُريدانِ ما فيهِ حَتفُ الأَمير
وَما ذاكَ إِلّا طَريقُ غَرورٍ وَشَرُّ المَسالِكِ طُرقُ الغَرور[5]

1- الحسن بن هانئ أبو نواس، ديوان أبي نواس، تح. أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص.11.

2- ينظر: مشتوب سامية، السخرية وتجلياتها الدلالية في القصة الجزائرية المعاصرة، ص.16.

3- بشار بن برد، ديوان بشار بن برد، ج.2، تح. محمد الطاهر بن عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، 1954م، ص.47.

4- ينظر: محمد سامي الدهان، الهجاء، ص.17.

5- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط.1، 2003م، ص.237.

فالشاعر هنا يستهزئ بمسؤولية الحاكم ويرى أنه ليس موضع ثقة، إذ إنه أراد لابنه الأمير موسى أن يتولى الخلافة بعده، فهو يهتم بمصلحته الخاصة وسط ازدراء وتباه على شعبه بالمكانة التي هو فيها، فلا خير في حاكم متكبر سمته الغرور.

إضافة إلى هذا يحضرنا نوع آخر من السخرية انطوى تحت مظلة الشعوبية، متمثلا في محاولة الموالي النيل من العرب والسخرية من حضاراتهم، وفي ذلك يقول بشار بن برد:

وَلا حَدا قَطُّ أَبي خَلفَ بَعيرٍ جَرِبِ
وَلا أَتى حَنظَلَةً يَثقُبُها مِن سَغَبِ
وَلا أَتى عُرفُطَةً يَخبِطُها بِالخَشَبِ
وَلا شَوَينا وَرَلاً مُنَضنِضاً بِالذَنَبِ
وَلا اِصطَلى قَطُّ أَبي مُفَحِّجاً لِلَّهَبِ[1]

فالشاعر في هذه الأبيات يسخر من العرب وطريقة معيشتهم ومن مأكلهم ومشربهم إذ يرى أنهم متخلفون، وهذا نوع من الصراع الذي كان بين العرب والعجم، واشتهر في هذا العصر.

وأشهر شعراء العصر العباسي خاصة العصر العباسي الثاني نجد دعبل الخزاعي والبحتري وابن الرومي، فقد سخر وأفحش هذا الأخير حتى تحاشاه الشعراء كالبحتري والعالم اللغوي الأخفش الذي صالحه واعتذر منه مرارا كذلك هجا القاسم الذي خصّه بقصائد طويلة[2]، حيث يقول ابن الرومي في هذا الشأن:

وَصَديقٍ أجبتُهُ إِذْ دَعَانِي نَحْوَ مَعْرُوفِهِ فَلَمْ أَلْقَ رُشْدا
لَمْ يَدَعْ لي عزّ القَنُوعِ وِلاَ جَا د برفدٍ يَعُدُّهُ ا لنَّاسِ رِفدا
جَادَ ثُمَّ الْتَوَى فَلاَ أَنَا بالرَّا ضِي وَلاَ المُشْتَكِي فَأَشْفِي وجْدا
هَاضَ حُرِيتِي وَأَوْثَقَ بالمنْ زُور مِنْ نَيْلِهِ لِسَانِي عَقْدا

1- بشار بن برد، ديوان بشار بن برد، ج.1، تح. محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر، د.ط، 2007، ص.390.

2- ينظر: هويدا الطريفي الإمام علي بن عوف، ملامح الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من خلال شعر ابن الرومي، مخطوط ماجستير، جامعة الخرطوم، السودان، 2007، ص.51.

فَإِلَى اللَّهِ أَشْتَكِي مَا أُلاَقِي مِنْ زَمَانٍ يجشّم الحرَّ جَهدا[1]

فابن الرومي في هذه الأبيات شكا من قلة عطاء القاسم له، حيث أنه مدحه لما دعاه الخليفة إلى ذلك، لكنه لم يجد عليه بالعطاء فلم يشتكي الشاعر وفي نفس الوقت لم يرضَ بالوضع. وابن الرومي معروف بالهجاء الساخر، فلم تسلم من لسانه لا الجواري ولا المغانيات، بل وصل به الحد إلى هجاء نفسه.

إضافة إلى البحتري الذي أراد أن يبلغ الأعراض والنيل منها، لكنه أفحش في ذلك ووقع في تعابير الجاهلية القديمة، فلم يكن له من الإبداع والابتكار ما كان لغيره، كما هجا الكثير ممن مدحهم منهم المنتصر والوزراء والرؤساء[2]، والكتاب وغيرهم...

وتأسيسا على ما أوردناه سابقا فإن السخرية في العصر العباسي أصبحت فنا قائما بذاته له أصوله وقواعده، كما تنوعت صورها وأساليبها وعرفت تطورا مهما على يد مجموعة من الشعراء البارزين أمثال بشار بن برد وأبو نواس وابن الرومي، إضافة إلى الكتاب الذين برزوا في هذا المجال على رأسهم الجاحظ، وشاعت في هذا العصر السخرية الفاحشة والهجاء المقذع، حيث تناول الشعراء الأمهات والأخوات، ولجؤوا لهذا الأسلوب أيضا إذا امتنع الخليفة عن العطاء أو قلَّ عطاءه عليهم.

1-5- السخرية في العهد الأندلسي.

لقد تطورت السخرية في الأدب من عصر لآخر تبعا لاختلاف الدوافع والأسباب وشاعت في العصر الأندلسي فهي ليست تقل شأنا عما كانت عليه في العصر العباسي، وقد ساعد على وجودها وتطورها مجموعة من العوامل والأسباب ساهمت في ذيوع السخرية وانتشارها على نطاق واسع[3]؛ وتمثلت هذه العوامل في عدم استقرار الحياة السياسية في الأندلس، إضافة إلى ضعف وانقسام الحكام خاصة أواخر حكم الأمويين، فانقسمت الأندلس إلى دويلات كان

1- ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، ج.1، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.3، 2002م، ص.460-461.

2- ينظر: محمد سامي الدهان، الهجاء، ص.21.

3- ينظر: فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، ص.16.

على رأس كل منها حاكم أو أمير، عمدوا إلى مصالحهم الشخصية. كما تحالف بعضهم مع الروم ضد المسلمين، وبعد أن دالت دولة الطوائف خضعت الأندلس لحكم الأفارقة وأصبحت تابعة لا متبوعة، وفي أواخر عصر الموحدين أخذت مدن الأندلس تسقط واحدة تلوى الأخرى في يد الأسبان ولم تبقَ سوى غرناطة ولم تلبث أن سقطت هي كذلك[1]، هذه الأسباب أدت بالشعراء إلى السخرية من حكام الأندلس ووصمهم بالخزي والعار لما قاموا به.

إضافة إلى ذلك نجد العوامل الاجتماعية؛ فقد اتّصف الأندلسيون بالحدة والتطرف في نظرتهم للأشياء، فكما وجدت بيئات الفقهاء والزهاد الذين كانوا متشددين في الأحكام المتعلقة بأمور الدين، وجدت كذلك بيئات مالت إلى التساهل والتحرر فصار فيها المحظور مباحا، كما انغمس الناس في حياة اللهو والعبث وانساق الحكام في هذه الحياة كذلك، أما الشعراء فقد ارتكبوا المآثم ودعوا للهو والمجون جهرا في أشعارهم ونادوا بالزندقة وتقديس الخمر واعتناقه[2]، هذه التناقضات التي كان يعيشها المجتمع الأندلسي أدت بالشعراء إلى السخرية من الوضع الاجتماعي وما كان سائدا آنذاك، وقد ظهر ذلك جليا في شعرهم وسنتناول أمثلة عن ذلك فيما يأتي.

ومما ساعد على ذيوع فن السخرية وانتشارها بين جموع الناس هو التكسب، فقد سعى الشعراء إلى التكسب بالهجاء والسخرية واعتبروها بابا من أرزاقهم، وفي ذلك يقول المقرى في أهل الأندلس: «كان لهم في الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وتير المهاد»[3]، فالمقرى في هذا القول وصف مظاهر حياة الأندلسيين، فقد تميزت بالترف والنعيم، كما كَثُر فيها اللهو والمجون وكان الناس يهبون الشعراء الأموال والعطايا اتقاءً لشرِّ ألسنتهم.

وانتقل ذلك إلى الحكام كذلك فقد اقتربوا من الشعراء وأخذوا في مداراتهم، خوفا من هجاءهم والتندر بهم، وقد لجأ بعضهم إلى حيل طريفة لصرف الشعراء عن السخرية والهجاء على نحو ما فعل إبراهيم بن حجاج حاكم إشبيلية مع الشاعر محمد بن يحي القلفاط، إذ إن

1- ينظر: فوزي عيسى،، الهجاء في الأدب الأندلسي، ص.16.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.ص.17-18.

3- المرجع نفسه ، ص.19.

الشاعر أسرف في هجاء أهل بلده وأفحش في كبار دولتها وسخر من إبراهيم بن حجاج وهجاه كونه لم يعطه المال، وبخل عليه[1]، وفي ذلك يقول:

أَبْغَى نَوَالُ الأَكْرَمِين معَاولاً أَبْغَى نَوال البَوْمَةِ النَّكْبَاءِ[2]

فلما بلغت هذه القصيدة مسامع ابن حجاج غضب لكنه احتال على الشاعر لصرفه عن الهجاء والسخرية، فأرسل إليه من يخبره بأنه سيبعث من يأخذ رأسه على فراشه، فخاف القلفاط وتوقف عن الهجاء، فشكر الناس ابن حجاج على هذا الفعل، لشدة المضرة التي ألحقها بهم القلفاط[3]، فالناس في هذا العصر على اختلاف مراتبهم كانوا يتحاشون شعراء السخرية والهجاء ويرهبونهم، فقد كانوا يقدّمون لهم الأموال والهدايا خوفا من حدة ألسنتهم، كما تحايل عليهم البعض مثل الحاكم إبراهيم بن الحجاج حتى يكفوا عن السخرية والهجاء.

إضافة إلى ذلك نجد الشاعر الأعمى المخزومي الذي عُدّ زعيم شعراء هذه الطبقة –طبقة شعراء التكسب بالهجاء– وقيل إنه خلف الحطيئة، إضافة إلى علي بن حزمون أحد شعراء الهجاء في عصر الموحدين، فهذه الطبقة من الشعراء كان لها أثر واضح في شيوع الهجاء المقذع؛ فهم لم يهابوا شيئا ولم يبالوا بما تحدثه ألسنتهم في نفوس المتلقين[4].

فالسخرية والهجاء في العهد الأندلسي توسعت مجالاتها عمّا كانت عليه في العصور السابقة، فكان هناك الهجاء السياسي، والهجاء الاجتماعي والهجاء السياسي بدوره كان من أكثر اتجاهات الهجاء رواجا فكان هجاء الحكام، والهجاء القبلي، والسخرية من العمال والولاة والقضاة...

1/ السخرية السياسية:

– السخرية من الحكام وهجاءهم:

فهذا النوع من الهجاء شاع في الأندلس وانتشر بشكل رهيب وذلك لظلم وجور الحكام وعدم أداء واجبهم على أكمل وجه، وتذبذب العلاقة الموجودة بين الشاعر والحاكم، هذا ما

1- ينظر:فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي ، ص. 19.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.ن.

3- ينظر: المرجع نفسه ، ص.ن.

4- ينظر: المرجع نفسه ،ص19-20.

أدى بالشعراء إلى محاولة التصدي لهذا الفساد بالنقد اللاذع والسخرية من هذا الوضع، وفي هذا يقول ابن شرف القيرواني:

مِمَّا يُزَهِّدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ سَماعُ مُقْتَدِرٍ فيها وَمُعْتَضِدِ
أَلْقابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِها كالْهِر يَحْكي انْتِفاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ[1]

وكان الخليفة محمد بن هشام بن عبد الجبار مشتهرا بالفسق والخلاعة، وكان شؤما على البلاد والعباد فقيل فيه:

أَشْأَمُ خَلْقٍ عَلَى العِبَادِ وَالنَّاسِ مِنْ حَاضِرٍ وَبَادٍ
أَبُو الوَلِيد الذِّي اقْشَعَرَّتْ لِنَحْسِهِ شَعْرَةُ البِلادِ[2]

ففي هذه الأبيات يتّضح أنه فاسق وفاجر وفوق كل هذا كان شديد البطش بالناس، فكأنه قد زاد على قوم عاد في بطشهم وطغيانهم[3]. ونجد في موضع آخر الشاعر مجاهد العامري وقد كان مائلا لدولة بني حمود يهجو الخليفة سليمان المستعين بقوله:

لاَ رَحِمَ اللهُ سُلَيْمَانَكُم فَإِنَّهُ ضِدُّ سُلَيْمَانِ
ذَاكَ بِهِ غُلَّتْ شَيَاطِينُهَا وحَلَّ هذَا كُلَّ شَيْطَانِ
فَبِاسْمِهِ سَاحَتْ عَلَى أَرْضِنَا لِهُلْكِ سُكَّانٍ وَأَوْطَانِ[4]

ففي هذه الأبيات يتّضح لنا من خلال معانيها أنها قد قيلت بعد أن قام علي بن حمود ومن معه من البربر بقتل هذا الخليفة سنة 407هـ وكان لهم السيطرة والملك على قرطبة طيلة سبع سنوات من الحكم حتى سنة 414هـ[5].

فمن هذه الأمثلة نرى الشعراء توجّهوا للحكام بالسخرية والهجاء المر الموجع، وذلك نظرا للأوضاع السياسية السائدة آنذاك، فقد انقسمت الأندلس إلى دويلات وكان على رأس كل

1- نافع عبد الله، الهجاء في الشعر العربي الأندلسي، مركز الوثائق والأبحاث، رام الله، فلسطين، ط.1، 1984م، ص.65.
2- المرجع نفسه، ص.ن.
3- ينظر: المرجع نفسه ، ص.66.
4- المرجع نفسه، ص.68.
5- ينظر: المرجع نفسه ، ص.ن.

منها أمير أو حاكم، فكثرة الحكام أدت إلى فقدان السلطة لهيبتها، وجور وظلم هؤلاء الحكام أدى بالسخرية والهجاء إلى الانتشار على نطاق واسع.

2/ الهجاء القبلي:

لقد ظهر الهجاء القبلي في الأندلس من خلال الحروب والمنازعات التي وقعت بين القبائل العربية خاصة القبيلة القيسية واليمنية فقد دارت بينهم حروب طويلة[1]، واستمرت هذه الحروب والعصبيات في الأندلس إلى أن جاء عبد الرحمان الداخل فانتهج سياسية جديدة للقضاء على هذه العصبيات، وذلك بالإكثار من شراء العبيد وتجنيدهم، وجلب من أفريقيا أعدادا كبير من البربر[2].

كما يعكس الهجاء القبلي بعض الصراعات والفتن التي حدثت بسبب الخلافة والحكم، ففي عهد المنتصر بالله خرج حسن بن قنون القرشي عن الدعوة، وزعم بأحقيته في الخلافة بسبب انتسابه لقبيلة قريش[3]، وقد هجاه محمد بن شخيص شاعر المنتصر فقال:

كَيْفَ يرجَى بِأَنْ يُوفِي قُرَيْشًا حَقَّهَا وَهُوَ مِن قُرَيْشٍ نَقَى
قَدَّمته الطَّعَام أنْ قَالَ جَدى حسنَى وَلَّيْتُه حُسَنى
فيرى في أميّة ما رآه حسن الفَاضِلِ الْتَقَى الرِّضَى[4]

ففي هذا المثال يتّضح لنا أن الهجاء القبلي الذي تجلّى في العصور القديمة ظهر كذلك في الأندلس وانتشر وتوسّع إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل وقضى عليه.

وما لبث أن اختفى هذا النوع منم الهجاء حتى ظهر نوع جديد وهو الهجاء العنصري والذي كان بين العرب والمولدين، فقد جرت بينهم معارك شعرية على شاكلة النقائض التي عرفت في المشرق، إذ عمد كل شاعر إلى السخرية والهجاء من أجل نصرة قبيلته والتندر بالعنصر الآخر والاستهزاء به[5]، وهو ما تولّدت عنه الشعوبية فيما بعد.

1- ينظر: نافع عبد الله، الهجاء في الشعر العربي الأندلسي، ص.49.
2- ينظر: فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، ص.59.
3- ينظر: المرجع نفسه، ص.60.
4- المرجع نفسه، ص.ن.
5- ينظر: نافع عبد الله، المرجع السابق، ص.61.

كما شاع في هذا العهد السخرية من أصحاب المهن الرسمية كالوزراء والولاة والعمال والقضاة وغيرهم، ذلك أنهم كانوا يشغلون مناصب مهمة في الدولة فقاموا بهجاءهم، وفي هذا الشأن يسخر ابن الربيع من حكم بن سعيد الحانك وزير المعتمد بالله إذ يقول:

هَبْكَ كَمَا تَدَّعِي وَزِيراً وَزِيرٌ مَنْ أَنْتَ يَا وَزِيرُ
وَاللهِ مَا لِلْأَمِيرِ مِنْ مَعني فَكَيْفَ مِنْ وَرَرِ الأَمِيرِ[1]

ففي حقيقة الأمر كان دافع الشعراء لهجاء هؤلاء تحت دوافع ذاتية ذلك أن منصب الوزير كان حلما للكثيرين منهم، فكان هجاء الوزراء ناجما عن حقد وضغينة للوزير نفسه ومن المنصب الذي يشغله[2].

3/ هجاء أصحاب المهن الرسمية:

– هجاء الولاة والعمال: كان انحراف الولاة والعمال عن أداء واجبهم في الحكم اتجاه شعوبهم سببا مقنعا في هجاء الشعراء لهم والسخرية والتندر بهم لكشف نواياهم وفضح مخططاتهم، وفي ذلك يقول يحي بن الحكم الغزال:

يَقولُ لِيَ القاضي مُعاذٌ مُشاوِراً وَوَلّى اِمرءاً فيما يَرى مِن ذَوي العَدلِ
فَدَيتُكَ ماذا تَحسَبُ المَرءَ صانِعاً فَقُلتُ وَماذا يَفعَلُ الدُبُّ في النَحلِ
يَدُقُّ خَلاياها وَيَأكُلُ شَهدَها وَيَترُكُ لِلذِبانِ ما كانَ مِن فَضلِ[3]

فالشاعر في هذه الأبيات يعبّر عن نظرة الناس لأولئك العمال فهم يأكلون أموال الناس ويستأثرون بالخيرات لأنفسهم، ولا يتركون للرعية إلا الفتات[4].

– هجاء القضاة: لقد حاد بعض القضاة عن أداء خدمتهم المطلوبة فقد سعوا لأخذ الرشوة وعدم معاملة الناس معاملة حسنة، هذا ما أدى بالشعراء للوقوف في وجوههم وهجاءهم

1- فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، ص.105.
2- ينظر: المرجع نفسه، ص.ن.
3- المرجع نفسه، ص.110.
4- ينظر: المرجع نفسه ، ص.ن.

والسخرية من أفعالهم[1]، وفي هذا الشأن نجد ابن القطان يتّهم القاضي ابن المرخم بالجهل في تطبيق الأحكام:

يَا ابْنَ المُرَخّم صِرْتَ فَيْنًا قَاضِياً خَرَفُ الزَّمَانِ تَرَاهُ أَمْ جنّ الفَلَكُ

إِنْ كُنْتَ تَحْكُمُ بِالنُّجُومِ فَرُبَّمَا أَمَا بِشَرْعِ مُحَمّدٍ مِنْ أَيْنَ لَكَ[2]

فالشاعر في هذه الأبيات نراه يسخر من القاضي ابن المرخم، ومن وظيفته التي يشغلها التي جعلته يستعلي ويتجبر ، فتعجب من فعله في قوله من أين لك؟

4/ السخرية الاجتماعية:

لقد تفشى هذا النوع من السخرية في المجتمع الأندلسي وهو ما يُطلق عليه النقد الاجتماعي؛ إذ يسعى الشاعر من خلاله تقويم السلوك الإنساني، ويذكر هذه السلوكات والصفات والرذائل المذمومة، كشرب الخمر والكذب والسرقة والبخل، وقد شغل هذا الأخير حيزا كبيرا عند الكتّاب والشعراء، فنجد «المخزومي الأعمى يهجو بني سعيد ويرميهم بالبخل، وقد فكّر ابن سعيد أن جدّه عبد الملك كان كثير الإحسان له مستحفظا من لسانه، وبعد ذلك فما سلم من ذاته ومن هجائه فيهم»[3]، وفي ذلك يقول:

لاَ تَرْجُونَ بَنِي سَعِيدٍ لِلْنَدَى فَالظلُّ أَفْيَدُ مِنْهُم لِلْسَائِلِ

فَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَنَازِلِهِمْ فَمَا أَبْصَرْتُ مِنْها غَيْر بعدِ مَنَازِلِ

قَوْمٌ مُصِيبَتُهُمْ بِطَلْعَةِ وَافِدٍ وَسُرُورُهُم أَبَدًا بِخَيْبَةِ وَافِدِ[4]

ففي هذه الأبيات يتندر الشاعر ببني سعيد وينعتهم بالبخل، كما كتب العديد من الشعراء في هذا الصدد وسعوا إلى ذم الصفات المستهجنة، ومحاولة إصلاح هذه الصفات الذميمة، وتقويمها عن طريق السخرية والهجاء.

1- ينظر: فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، ص.112.

2- المرجع نفسه، ص.112.

3- المرجع نفسه، ص.142.

4- المرجع نفسه ، ص.ن.

5/ هجاء التندر والسخرية:

يعتمد هذا النوع من السخرية والهجاء على النكتة والصور المضحكة، فقد حفلت مصادر الأدب الأندلسي بكثير من النوادر والطرائف التي تدلّ على تأصّل روح المزاح عند الأندلسيين[1]، فقد شاعت سخرية التندّر والدّعابة بالخصم بين جموع الشعراء والأدباء خاصة من الزي والهيئة الخارجية لإنسان، وفي ذلك يقول سعيد بن العاص في أحد أصدقائه:

وَثَوْبُهُ فِي سَالِفِ الزَّمَانِ خلْعَةُ فِرْعَوْنَ عَلَى هَامَانِ

أَفْنَى اللَّيَالِي وَهُوَ غَيْرُ فَانٍ حَتَّى غَدَا كَالإِفْكِ فِي العَيَانِ

فَهُوَ عَلَيْهِ وَهُوَ كَالعِرْيَانِ[2]

فالشاعر في هذه الأبيات سخر من زي صديقه وتندر به، حيث وصفه بأنه يشبه زي فرعون وهذا يدل على قدمه.

كما اشتهر هذا العصر هجاء النفس كثيرا ونجد الشاعر ابن حزمون برع في هذا اللون وتمكن منه، وفي ذلك يقول عنه صاحب المعجب: «إن له في الهجاء يدا لا تطاول، غير أنه يفحش في كثير منه، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة»[3]، حيث يقول في السخرية من نفسه:

تَأَمَّلْتُ فِي المِرْآةِ وَجْهِي فَخِلْتُهُ كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهْوِ

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَهْجُو تَأَمَّلْ خَلِيقَتِي فَإِنَّ لَهَا مَا أَرَدْتَ مِن الهَجْوِ[4]

فابن حزمون في هذا المقام تقفى خطوات الحطيئة وقام بهجاء نفسه والسخرية من خليقته.

أمّا بالنسبة للنثر الأندلسي فنجد الرسالة الهزلية لابن زيدون والتي تحوي وتتضمن الهجاء الساخر، «وقد كتبها ابن زيدون على لسان ولادة يسخر فيها من ابن عبدوس غريمه ومنافسه في

1- فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، ص.155.

2- المرجع نفسه، ص.159.

3- المرجع نفسه، ص.162.

4- المرجع نفسه ، ص.ن.

حبها وتمتزج السخرية بالذم»[1]، حيث يقول ابن زيدون في بداية هذه الرسالة: «أما بعد أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البيّن سقطه الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى من شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب، وإنك راسليني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصديا من خلّتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك مرسلا عشيقتك قوادة، كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلي، وتخلف بعدها علي»[2]، وواضح من خلال هذه الرسالة أن ابن زيدون قد تأثر بالجاحظ خاصة رسالته التربيع والتدوير «وأعجب ابن زيدون برسالة الجاحظ فحذا حذوه واصطنع طريقته في السخرية والتهكم وقلّده في تضمين الشواهد والاقتباس من القرآن والحديث والشعراء والأمثال والتاريخ والفلسفة والعلم»[3].

ومما سبق تناوله يمكننا القول أن السخرية في العصر الأندلسي قد تعددت وتنوعت تبعا للظروف والعوامل المؤثرة في ذلك، فكما تجلت السخرية في الشعر تجلت كذلك في النثر، وكنا قد أخذنا أمثلة على كل منهما.

1-6- السخرية في العصر الحديث:

كان للأدب في العصر الحديث حظٌّ وفير من الصور الساخرة كغيره من العصور السالفة، وقد ساعدت على ظهور هذا اللون من الفنون مجموعة من العوامل والأسباب تمثلت في الوضع السياسي والاجتماعي الذي كان يعيشه العربي آنذاك من مشاكل وأزمات أضف إلى ذالك ظلم واستبداد الحكام والاستعمار، هذه العوامل وأخرى ساهمت في انتشار السخرية في هذا العصر، فقد «برزت في هذا المجال أسماء وأقلام عديدة نذكر منها الشاعر العراقي أحمد مطر الذي جعل شعره منبرا لرفض الواقع العربي بطريقة ساخرة جعلها أسلوبه الخاص في معالجة قضايا الأمة، ومن

1- فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي ، ص.171.

2- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، رسائله وأخباره، شعر الملكين، شرح الحلبي، القاهرة، مصر، ط.1، 1932م، ص.314.

3- فوزي عيسى، المرجع السابق، ص.174.

ذلك نذكر ما قاله الساسة العرب وما يمارسونه من قمع واضطهاد تجاه المثقفين العرب لخنق الحريات وإجهاض دعوات الإصلاح والمساواة»[1]، حيث يقول:

قَرَأْتُ فِي القُرآنِ
"تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَب"
فَأَعْلَنْتُ وَسَائِلَ الإذْعَانِ:
"إنَّ السُّكُوتَ مِنْ ذَهَب"
أَحْبَبْتُ فقرَى... لَمْ أَزَلْ أَتْلُو:
وَتَبْ
مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَب
فصُودِرَت حُنْجُرَتِي
بِجُرم قِلَّةَ الأَدَبِ
وَصُودِرَ القُرْآن
لأَنَّهُ... حَرَّضَنِي عَلَى الشَّغَب![2]

فأحمد مطر في هذه الأبيات نراه يعبر عن رفض تام للحصار الإعلامي الذي فرضته عليه السلطة، سعيا منها لقطع الصلة التي تربطه مع المجتمع، مما جعل العبارة الشهيرة السكوت من ذهب محملة بكل معاني القمع والاضطهاد ما سبّب له إحساسا أليما ومريرا[3]، فعليه الالتزام بالسكوت أو الموت.

ومن بين الشعراء الساخرين نجد أحمد شوقي الذي كتب قصيدة سماها "انتحار الطلبة"، وقد سخر فيها من الشباب الذين ينتحرون وهم في ريعان شبابهم إذ يقول:

كُلُّ يَومٍ خَبَرٌ عَن حَدَثٍ سَئِمَ العَيشَ وَمَن يَسأَم يَذَر
عافَ بِالدُنيا بِناءً بَعدَ ما خَطَبَ الدُنيا وَأَهدى وَمَهَر

1- مشتوب سامية، السخرية وتجلياتها الدلالية في القصة الجزائرية المعاصرة، ص.18.

2- محفوظ كحوال، أروع قصائد أحمد مطر، سلسلة الشعر العربي المعاصر، أكثر من 230 قصيدة، مكتبة نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص.20-21.

3- مشتوب سامية، المرجع السابق، ص.19.

حَلَّ يَومَ العُرسِ مِنها نَفسَهُ رَحِمَ اللهُ العَروسُ المُختَضَر
ضاقَ بِالعيشَةِ ذَرعاً فَهَوى عَن شَفا اليَأسِ وَبِئسَ المُنحَدَر
راحِلاً في مِثلِ أَعمارِ المُنى ذاهِباً في مِثلِ آجالِ الزَهَر
هارِباً مِن ساحَةِ العَيشِ وَما شارَفَ الغَمرَةَ مِنها وَالغُدُر
لا أَرى الأَيّامَ إِلّا مَعرَكاً وَأَرى الصِنديدَ فيهِ مَن صَبَر
رُبَّ واهي الجَأشِ فيهِ قَصَفٌ ماتَ بِالجُبنِ وَأَودى بِالحَذَر[1]

ففي هذه الأبيات نرى أحد شوقي سخر من الشباب الذين انتشرت لديهم ظاهر الانتحار، كما نراه يبعث فيهم الأمل ويدعوهم للتفاؤل وعدم اليأس، ويرى أن الرجل الشجاع القوي هو من يصبر ويحارب في الحياة ولا يستسلم عندما تعرقل العقبات طريقه.

ونجد شاعر المهجر إيليا أبو ماضي الذي وظّف السخرية في بعض قصائده مثل قصيدة الطين الحقير تناول فيها الطين كرمز للإنسان المتكبر، حيث أعاب عليه هذا الاستعلاء وذكره بأصله إذ يقول في ذلك:

نَسِيَ الطينُ ساعَةً أَنَّهُ طينٌ حَقيرٌ فَصالَ تيها وَعَربَد
وَكَسى الخَزُّ جِسمَهُ فَتَباهى وَحَوى المالَ كيسُهُ فَتَمَرَّد
يا أَخي لا تَمِل بِوَجهِكَ عَنّي ما أَنا فَحمَة وَلا أَنتَ فَرقَد
أَنتَ لَم تَصنَعِ الحَريرَ الَّذي تَلبَس وَاللُؤلُؤَ الَّذي تَتَقَلَّد
أَنتَ لا تَأكُلُ النُضارَ إِذا جِع ت وَلا تَشرَبُ الجُمانَ المُنَضَّد
أَنتَ في البُردَةِ المُوَشّاةِ مِثلي في كِسائي الرَديمِ تَشقى وَتُسعَد
أَيُّها الطينُ لَستَ أَنقى وَأَسمى مِن تُرابٍ تَدوسُ أَو تَتَوَسَّد[2]

فالشاعر في هذا الأبيات يسخر من الطين ألا وهو الإنسان وينعى عنه صفة التكبر والاستعلاء إذ يذكّرُه بالنقص الذي هو فيه حتى يرجع إلى صوابه.

1- أحمد شوقي، الشوقيات، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د.ط، 2012، ص.ص.179-180.
2- إيليا أبو ماضي، ديوان أبو ماضي، دار العودة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص.318-322.

ونجده في قصيدة أخرى يسخر فيها من الإنسان الأناني المتكبر ويرمز له بالتينة الحمقاء ويصفها بالحمق كونها لا تقدر قيمة الأشياء، وهناك قصائد عديدة لإيليا أبو ماضي تتجسّد فيها السخرية والاستهزاء.

إضافة إلى نزار قباني الذي وظّف في كتاباته عنصر السخرية خاصة في ديوانه الأعمال السياسية الكاملة فقد سخر من العرب ومن الأحوال السياسية التي آلوا إليها، حيث يقول في المقطع الرابع من قصيدة **"تونس الخضراء"**:

مِنْ أَيْنَ أَدْخلُ فِي القَصِيدَةِ يَا تُرَى ؟ وَحَدَائِقُ الشِّعْرِ الجَمِيلِ... خَرَابٌ
لَمْ يَبْقَ فِي دَارِ البَلاَبِلِ بُلْبـــلٌ لاَ البُحْتُرِيُّ هُنَا... وَلاَ زِرْيَابُ
شُعَرَاءُ هَذَا اليَوْم جنسٌ ثالثٌ فَالقَوْلُ فَوْضَى... وَالكَلاَمُ ضَبَابٌ
يَتَكَلَّمُونَ مَعَ الفَارِغِ... فَمَا هُمْ عَجَمٌ إِذَا نَطَقُوا... وَلاَ أَعْرَابُ
اللاَّهِثُونَ عَلَى هَوَامِشِ عُمْرِنَا سِيَانَ إِنْ حَضَرُوا وَإِنْ هُمْ غَابُوا...
يَتَهَكَّمُونَ عَلَى النَّبِيذِ مُعتقاً وَهُمْ عَلَى سَطْحَ النَّبِيذِ ذُبَابُ
الخَمْرُ تَبْقَى إِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهَا خَمْراً .. وَقَدْ تَتَغَيَّرُ الأَكْوَابُ[1]

ففي هذه الأبيات نرى أن الشاعر يتساءل من أين يدخل القصيدة؟ فالشعر اليوم لم يعد كسابق عهده مع البحتري وزرياب فهما رمزان من رموز القوة، كما ينعت شعراء هذا الزمان بأنهم جنس ثالث، إذ أن شعرهم يتّسم بالفوضى والضعف، حيث أن كلامهم يصيب بالحيرة لا تعلم أهم عرب أم عجم؟ وفي هذا سخرية واستهزاء من الوضع السياسي آنذاك.

كما سخر نزار قباني من الوضع الاجتماعي الذي كانت تعيشه المجتمعات العربية في ذلك الوقت، حيث يقول قصيدة أطلق عليها "قصيدة اعتذار لأبي تمام":

إذا كنّا سنبقى أيّها السّادَهْ
ليومِ الدّينِ ... مختلفينَ حولَ كتابةِ الهمزهْ...
وحولَ قصيدةٍ نُسبَتْ إلى عمرو بنِ كلثوم...
إذا كنّا سنقرأُ مرّةً أخرى

1- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، ج.3، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص.638-639.

قصائدَنا التي كنّا قرأناها...

ونمضغُ مرّةً أخرى

حروفَ النصبِ والجرِّ... التي كنّا مضغناها

إذا كنّا سنكذبُ مرّةً أخرى

ونخدعُ مرّةً أخرى الجماهيرَ التي كنّا خدعناها

ونُرعِدُ مرّةً أخرى ... ولا مَطَرُ

سأجمعُ كلَّ أوراقي ...

وأعتذرُ... [1]

فالشاعر في هذه الأبيات يسخر من العرب وانشغالهم بأمور ماضية ككتابة الهمزة ونسبة القصيدة لصاحبها وترك الأمور المهمة كالدفاع عن الوطن وحمايته، إذ أعاب عليهم اهتمامهم بأمور ثانوية وإهمالهم ما هو أهم، فإن استمروا على ما هم فيه فسيجمع أوراقه ويعتذر.

أما بالنسبة للكتاب الذين برزوا في الأساليب الساخرة في هذا العصر نجد الكاتب المصري إبراهيم عبد القادر المازني، فهو «يسخر حين يتناول كاتبا أو كتّابا حين يتناول بالوصف قطاعا من الحياة المصرية... يسخر قصاصا من أبطال قصصه، ويسخر صحفيا من السياسة والصحافة والأحزاب، لكن سخريته تبقى أقرب إلى الفكاهة منها إلى السخرية كمذهب باعتبارها تبعث على التفكّه والمزاح»[2]، فالمازني في كتبه ومؤلفاته اعتمد على أسلوب السخرية وهذه السخرية كانت قريبة من الفكاهة والضحك.

إضافة إلى ذلك نجد الكاتب الليبي مصطفى المصراتي كتب قصة سماها مجمع الجهلة والتي جاء فيها: «الجهل فيه نون الوقاية... فيه التدرع والعيانة قد يراه أهل العلم بشعا يشوك يؤذي ولكنه يحفظنا ويفيدنا... فهل ندافع عن جلودنا؟ أم ندع العلماء والمتعلمين يسلخون جلودنا؟»[3]، فهذه القصّة ورد فيها أن الجهلة عقدوا اجتماعا من أجل التصدي لأهل العلم

1- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، ج.3، ص.348.

2- شمس واقف زاده، الأدب الساخر أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، ص.120.

3- مشتوب سامية، السخرية وتجلياتها الدلالية في القصة الجزائرية المعاصرة، ص.19.

ومحاولة إيجاد سبل للدفاع عن أنفسهم من شر العلم والعلماء، فالكاتب في هذه القصة نجده سخر من هؤلاء الجهلة، وكانت عبارة عن رمز واجه به الواقع وتناقضاته.

كما نجد توفيق الحكيم في سلسلة مع "حمار الحكيم" تناول مشاكل المجتمع وسخر من الواقع المعيش، وفي ذلك يقول: «عرفته في يوم من أيام الصيف الماضي... في قلب القاهرة... وفي شارع من أفخم شوارعها... وأشرفت على حانوت الحلاق... وإذ أنا أراه... أرى ذلك الذي كتب أن يكون صديقي... وقف المارة ينظرون إليه ويحدقون، وبجمال منظره ورشاقة خطاه يعجبون... لقد كان صغير الحكم كأنه دمية... أبيض كأنه قدَّ من رخام، بديع التكوين كأنه من صنع فنّان، وكان يمشي مطرقا في إذعان، كأنه يقول لصاحبه: اذهب إلى حيث شئت فكل ما في الأرض لا يستحق من رأس عناء الالتفات...»[1]، فتوفيق الحكيم هنا تحدّث عن الحمار الذي أصبح صديقه وذكر ما حدث يوم لقائهم، وقد وظّف في ذلك مجموعة من الصور الساخرة.

إن فن السخرية عند شعراء العصر الحديث لا يختلف كثيرا عن فن السخرية الذي كان سائدا في العصور السابقة، كما أن السخرية في دواوين هؤلاء قد شغلت حيّزا كبيرا خاصة السخرية المتعلقة بالجانب السياسي والتي مثلت الوضع الراهن آنذاك في العالم العربي، حيث منحتنا صورا واضحة لقضاياه، كما ساعدت على الإصلاح إلى الأفضل في مختلف جوانبه، إضافة إلى أن السخرية عند هؤلاء الشعراء لم تقتصر على هذا اللون فقط، وإنما وجدت مجالات أخرى صورتها السخرية منها معالم حياة العالم العربي، وبالتالي فإن كل موضوع يصلح أن يكون محطّة للسخرية[2]، فالسخرية في هذا العصر كانت نوعا من النقد الاجتماعي تسعى لإصلاح الفرد والمجتمع إذ تحثّهم على النهضة والوقوف من أجل التصدِّي للعقبات التي تعرقل طريقهم.

1- توفيق الحكيم، حمار الحكيم، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، د.ط، 1990م، ص.ص.11-12.

2- ينظر: شمس واقف زاده، الأدب الساخر أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، ص.120.

الفصل الثاني:

مظاهر الخطاب الساخر

في نقائض جرير والفرزدق

1- لمحة عن النقائض.

2- التشكيل اللغوي الساخر في نقائض جرير والفرزدق

1- سخرية مستوى الأصوات

1-1-سخرية أصوات الحيوانات

1-2-سخرية أصوات الجسد

1-3-سخرية أصوات الحركة

1-4- السخرية القائمة على أصوات اشتقاق الجرس الموسيقي

2- سخرية مستوى التراكيب

2-1- السخرية على مستوى الألفاظ

2-2- السخرية في مستوى التراكيب والجمل

2-3- سخرية التكرار

1- لمحة عامة عن النقائض:

النقائض فن له أهمية بارزة في التراث الشعري العربي، تعود بواكيره الأولى إلى العصر الجاهلي، حيث كان بصورة بسيطة تمثلت في المنافرات التي كانت سائدة بين القبائل الجاهلية، ثم تطورت في العصر الأموي لتصبح فنا قائما بذاته، وقد أشار "عمر فروخ" في كتابه "تاريخ الأدب العربي" لهذا الأمر في قوله: «كانت النقائض في العصر الأموي استمرارا للهجاء القبلي في الجاهلية، وكان يبعثها عادة خلاف بين قبيلتين أو أسرتين فينتصر شاعر لقومه أو لأحلاف قومه، فيرد عليه شاعر من هؤلاء، فيعود الأول إلى الرد عليه، ثم يلتحم ويستطير، ولقد أذكى هذه النزعة في الشعراء قيام الأحزاب، وتقرُّب هؤلاء الشعراء إلى الخلفاء والأمراء بهجاء خصومهم تكسبًا للمال»[1]، ففي هذا إشارة إلى أن النقائض الأموية كانت استمرارا للهجاء الجاهلي، يلتزم فيها الشعراء بالرد على خصومهم، فكان شعرا متبادلا بين القبائل، إضافة إلى أن تعدد الأحزاب ورعاية الخلفاء للشعراء واتخاذ شعراء ناطقين باسمهم لمدحهم والسخرية وهجاء أعدائهم، كان له أثر واضح في تطور هذا الفن في عصر بني أمية.

وظهر هذا التطوّر في هذا الفن من خلال أن النقائض: «صارت أكثر تعقيدا مع تطور الحياة، فكان لها رُوّادها ومن برع فيها، ومن أشهرهم جرير والفرزدق والأخطل، حيث أحيوا هذا الفن ما عاشوا، وزاد زمن نقائضهم على أربعين عاما، فهؤلاء يشكلون عصب حركة النقائض، وفن النقائض شكل من أشكال المناظرة والجدال والمناقشة والحوار، وهي ميزة امتاز بها هؤلاء الشعراء دون غيرهم، ولعلهم أفادوا من علماء الفقه وحلقات العلم وتاريخ الأيام والوقائع، ويعدّ شعرهم في النقائض من أبدع ما قيل، فمن يقرأ شعرهم سيجد أمورا بسيطة سخروها لخدمة شعرهم، غابت عن أذهان الناس، وهذا ما جعلهم عصب هذه الحركة»[2]، وفي هذا إشارة إلى أن تطور النقائض في عصر بني أمية كان نابعا من تطور الحياة آنذاك من مختلف جوانبها، ومن بين

1- عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، ج.1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط.4، 1981م، ص.363.

2- لؤي موفق الحاج علي، صورة المهجوّ في شعر النقائض، مخطوط ماجستير، جامعة جرش، عمان، الأردن، 2015م، ص.30.

الشعراء الذين برزوا في هذا الفن نجد جرير والفرزدق والأخطل، حيث عرفوا بثلاثي النقائض، إضافة إلى أن النقائض مظهر من مظاهر المجادلة والحوار إذ امتاز بها هؤلاء الثلاثة كونهم اطّلعوا على الشعر القديم والوقائع التاريخية والثقافة العربية، وذلك عن طريق حلقات العلم التي كانوا يحظرونها.

ومن أبرز الخصومات الشعرية في تاريخ الأدب الشعري نقائض جرير والفرزدق، فهذا الديوان استغرق مدة أطول في تأليفه من ديوان جرير والأخطل، فقد ظلا يؤلفان فيه وفي نقائضه حتى توفيا لعهد هشام بن عبد الملك في 114 للهجرة[1].

فنقائض جرير والفرزدق كانت فنا جديدا في مدينة البصرة، فقد وجد فيها سكانها مظاهر اللهو واللعب والتسلية، فكانت عبارة عن لعبة أعجب القوم بها، وكانوا يخرجون للفرجة عليها في مسرح المربد الذي كانت تأتي إليه القبائل من كل مكان ويتحلَّقون حول جرير والفرزدق للاستماع إلى نقائضهم[2].

ولما كانت الناس تتحلّق حول الشاعرين جرير والفرزدق «كان يقف أحدهما فيلقي من جعبته كل ما أعدّه لخصمه من سهام الشعر، وسرعان ما يحمل الرواة هذه السهام إلى صاحبه، فينظر فيها ويطيل النظر ثم يحاول أن ينقضها وأن يردّ عليها، فالفرزدق مثلا ينشد قصيدة أو نقيضة في هجاء قيس وقوم جرير كليب ويفتخر بتميم وأمجادها في الجاهلية، وقد يضيف إلى ذلك انتصارا للأخطل وتغلب، ويحمل الرواة في هذه النقيضة إلى جرير فيحاول أن يردّ كل ما فيها من سهام إلى نحر الفرزدق وقومه، وقد يتعرض للأخطل يقذفه بدينه وكل ما يرد على خاطره»[3]، فهنا الشاعر يلقي قصيدته في مسرح المربد ويسعى لقذف خصمه والسخرية منه ومن قومه، وكان الرواة يأخذون هذه النقيضة إلى خصمه فيحاول الردّ عليها بنفس المنوال ويهجي صاحبها وقومه، كما كان جمهور المتفرجين يتفاعلون معه ويسخرون لسخريته فيضحكون ويستهزؤون بخصمه.

1- ينظر: شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص.175.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.183.

3- المرجع نفسه، ص.183-184.

إضافة إلى أن النقائض التي دارت بين جرير والفرزدق لم يكن يقصد بها الجدّ الخالص، وإنما كان يراد بها اللهو والتسلية، وملئ أوقات فراغ الناس في البصرة، وظل الشاعران يتقاذفان هذه النقائض حقبا متطاولة ويتجمع أهل البصرة حولهما ليرو تفوّق كل منهم في هذا اللعبة[1]، فحاولوا إبراز قدراتهم في هذا المجال من أجل السخرية من خصومهم ونيل رضا الجمهور من حولهم.

2- التشكيل اللغوي الساخر في نقائض جرير والفرزدق:

تتنوّع وسائل السخرية في الأدب العربي وتتعدّد، فقد تكون بقول أو فعل أو عن طريق إشارة، إذ «تكمن أهمية السخرية داخل الخطاب الأدبي بعامة والشعري بخاصة من خلال مستويات تشكلها بوصفها ظاهرة فنية تقوم على العلاقات والعلامات والأقوال اللغوية المرتبطة بالكتابة الإبداعية بوصفها ممارسة فنية تسهم في إنتاج دلالة النص»[2]، فالشعراء كانوا ينضمون أشعارهم الساخرة وفق أغراض معلومة كالذم والهجاء أو الانتقاص من مكانة شخص أو قبيلة ما، وهذه السخرية تتجلى في خطاباتهم الشعرية كألفاظ أو إشارات أو أفعال.

إضافة إلى أن «السخرية تكتسب قدراتها على المواجهة مع الآخر عن طريق اللغة ذاتها بأصواتها وتراكيبها وألفاظها ودلالاتها، ولهذا فالساخر يحاول استعمال مرونة اللغة بكل أشكالها المختلفة في موقع سياق الأحداث، أو من خلال خروجها عن المألوف في اللغة أو عن طريق الاشتقاق الساخر لكلمات جديدة تتناسب مع عالمه الساخر وإبداعه»[3]، فالسخرية قد تكون ظاهرة وقد تكون ضمنية مفهومة من السياق وما بين الأسطر، منها ما يظهر على شكل لفظ أو مجموعة ألفاظ متشاكلة أي تجمعها قوانين النحو من تقديم وتأخير وحذف... أو عن طريق استحداث ألفاظ جديدة حيث يقال يجور للشاعر مالا يجوز لغيره من حذف واستحداث لهذه الألفاظ.

1- شوقي ضيف، التطور والتجديد في العصر الأموي، ص.184.

2- سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.29.

3- المرجع نفسه، ص.ن.

والتشكيل اللغوي الساخر في الشعر عامة وفي أشعار جرير والفرزدق خاصة يكمن في مستويين هما:

أ/ المستوى الصوتي.

ب/ المستوى التركيبي.

1- سخرية مستوى الأصوات:

للصوت أهمية بالغة في الدراسة الشعرية، إذ أنه الأداة المباشرة لنقل اللغة وتلقيها، كما أن السخرية تتشكل مما تراه العيون وتسمعه الآذان، فيظهر نقص وعجز المسخور منه ويتولد الضحك والاستهزاء والسخرية به[1]، إضافة إلى أن سخرية مستوى الأصوات تتمثل في التحام الصوت بالرمز الدال عليه والتي يطلق عليها سخرية المحاكاة الصوتية، وتتجلى هذه المحاكاة في: سخرية أصوات الحيوانات وسخرية أصوات الجسد وسخرية أصوات الحركة[2].

1-1- سخرية أصوات الحيوانات:

استخدم شعراء النقائض وعلى رأسهم جرير والفرزدق أصوات الحيوانات للسخرية من الخصم وتشويه صورته إذ يصوره في شكل تشمئز منه النفس الإنسانية فيشبه صفاته وطبائعه بالحيوان من أجل الاستهزاء به والحط من شأنه.

ومن بين أصوات الحيوانات التي استخدمت لتشويه صورة المسخور منه نجد صوت الكلب، حيث يقول الفرزدق ساخرا من جرير:

عَوى فَأَثارَ أَغلَبَ ضَيغَمِيّاً فَوَيلَ اِبنِ المَراغَةِ ما اِستَثارا[3]

هنا تتجلى سخرية قائمة على ثنائية الضعف والقوة، فالساخر أسد قوي يقف أمام المسخور منه وهو الكلب: فالصوتين المتناقضين وهما العواء والزئير يجسدان هذه الثنائية، كما يجسد العواء دونية المسخور منه (جرير)[4].

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.32.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.33.

3- علي فاعور، ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1987م، ص.307.

4- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.35.

وقد وظّف جرير صوت الضباع وهو الرغاء من أجل تبيان ضُعف المسخور منه وانكساره عند مواقف الشجاعة والبطولة، حيث يُصوِّر جرير السخرية من قبيلة مجاشع وهزيمتهم يوم ذي قار عندما خذلوا الزبير يوم مقتله[1]، إذ يقول:

تَراغَيتُمُ يَومَ الزُبَيرِ كَأَنَّكُم ضِباعٌ بِذي قارٍ تَمَنّى الأَمانِيا[2]

فالسخرية في هذا البيت تتمثل في صوت الرغاء وذلك للدلالة على الذل والهوان لقبيلة مجاشع، فقد شبههم بالضباع التي تهرب من العدو وتهاب مواجهته[3].

كما وظفوا صوت الخوار وهو: «صوت البقرة أو العجل بارتفاع أو صياح، وتكمن السخرية في ارتفاع الصوت أثناء الخوار، وهو ما يتناسب مع حالة الضعف التي يلصقها الشاعر بالمسخور منه»[4]، وفي هذا المقام يقول جرير ساخرا من الفرزدق ومجاشع بسبب عدم نصرتهم للزبير، إذ يقول:

غَرّوا بِعَقدِهِمُ الزُبَيرَ كَأَنَّهُم أَثوارُ مَحرَثَةٍ لَهُنَّ خُوارُ[5]

فالسخرية هنا تتجلى في هزيمة قوم مجاشع وخداعهم للزبير، إذ شبّههم الشاعر بالثيران التي تحرث والتي تصدر صوت الخوار.

إضافة إلى توظيفهم لصوت النعيق وهو «من الأصوات التي يطلقها الراعي في أثناء دعوته لأغنامه ومحاولة تجميعها للأكل أو الشرب، وقد استخدم الشعراء هذه الأصوات في السخرية لكون المسخور منه يعيش كل أوقاته مع الأغنام، فيردد أصواتها»[6]، وهذا النوع من الأصوات وظفه الفرزدق في أبياته، حيث يقارن بين قبيلة جرير، حيث يقول:

أَبَنو كُلَيبٍ مِثلُ آلِ مُجاشِعٍ أَم هَل أَبوكَ مُدَعدِعاً كَعِقالِ

دَعدِع بِأَعنَقِكَ التَوائِمَ إِنَّني في باذِخٍ يا اِبنَ المَراغَةِ عالي[7]

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.37-38.

2- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.244.

3- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.38.

4- المرجع نفسه، ص.38.

5- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق، ص.203.

6- سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.39.

7- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.496.

فالسخرية في هذه الأبيات تمثلت في صوت الدعدعة التي يقوم بها آباء جرير وأجداده أثناء دعوتهم للأغنام وتجميعها في موضع واحد[1]، وهذا لتعييرهم والحط من شأنهم.

وقد وظّف جرير والفرزدق في أشعارهم صوت الضعفاء وهو صوت صياح الخنزير والذئب والنسور، وذلك للدلالة على ذل وقهر الخصم، في إشارة لما تحدثه قصائدهم من آلام للمسخور منه ينتج عنها هذا الصوت[2]، وفي هذا الشأن يقول جرير ساخرا من الفرزدق:

وَكَيفَ نَجاةٌ لِلفَرَزدَقِ بَعدَما ضَغا وَهوَ في أَشداقِ أَغلَبَ حارِدِ[3]

فجرير في هذا البيت شبّه نفسه بالأغلب وهو الأسد غليظ الرقبة ينقض على فريسته وهي الفرزدق، فما للفرزدق من حول ولا قوة إلا صياحه بصوت الضغاء لما أحدثته أشعار جرير في نفسه[4].

كما يرد الفرزدق على جرير بنفس النمط الصوتي، إذ يقول:

تَرَكنا جَريراً وَهوَ في السوقِ حابِسٌ عَطِيَّةَ هَل يَلقى بِهِ مَن يُبادِلُه
وَهَل كانَ إِلّا ثَعلَباً راضَ نَفسَهُ بِمَوجٍ تَسامى كَالجِبالِ مَجاوِلُه
ضَغا ضَغوَةً في البَحرِ لَمّا تَغَطمَطَت عَلَيهِ أَعالي مَوجِهِ وَأَسافِلُه[5]

فالسخرية في هذا الموضع تمثلت في «صوت الضغاء حيث صورت جريرا باكيا ذليلا في وسط البحر الذي يغشاه موج من فوقه، فالفرزدق يجعل من أبياته الشعرية التي تؤلم جريرا بمنزلة تلاطم الأمواج العاتية في البحر، كما كشفت القوة التي يتميز بها الساخر، والضعف الذي ينتاب المسخور منه الذي صوره كالثعلب أو النسر الذي يداهمه الموج»[6]، ومن هنا فإن الفرزدق شبه نفسه بالأمواج العاتية التي تهاجم المسخور منه وهو جرير، وهذه صورة واضحة لثنائية العظمة والهوان.

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.40.
2- ينظر: المرجع نفسه، ص.41.
3- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.178.
4- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.41.
5- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.506.
6- سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.42.

1-2- سخرية أصوات الجسد:

إن الهيئة العامة للإنسان تعدّ عنصرا مهما يساهم في تقوية شخصية الفرد وكل عيب يصاحب هذا الشكل العام، يكون سببا للسخرية والتهكم[1]، وفي العهد الأموي تجلى هذا النوع من السخرية في قصائد العديد من الشعراء، وعلى رأسهم جرير، يقول في السخرية من الفرزدق:

تَضْغُوا الخَنَانِيضُ وَالفُولُ الذي أكَلَتْ فِي حَاوِيَات رَدُومِ اللَّيْلِ مِجْعَارِ[2]

فُسِخَ العَباءُ وَرِيحُ نِسوَةِ تَغلِبٍ عَدَسٌ يُقَرقِرُ في البُطونِ وَفولُ[3]

فالسخرية هنا تمثلت في أكل الخنزير والعدس والفول، إذ أنها أحدثت صوت القرقرة وهو من أصوات البطن[4]، ويشكل دلالة واضحة من أجل التهكم والسخرية من الخصم.

كما يعدّ الصفير من بين المظاهر الصوتية التي تكون مدعاة للسخرية والازدراء، حيث يقول الفرزدق في نساء جريرا ساخرا منهنّ:

الوَالِداتُ وَمَا لهُنَّ بُعُولَةٌ والقَاتِلاتُ لَهُنَّ كُلَّ صَغِير

وَالمُدْلِجَاتُ إِذا النُّجُوم تَغَوَّرَتْ وَالتَّبِعَاتُ دُعَاءُ كُلِّ صَفِير[5]

وفي هذا إشارة واضحة للسخرية من نسوة جرير التابعات لصفير الرجال لهن بهدف ارتكاب الرذيلة والبغاء[6].

وفي موضع آخر يوظف جرير صوتا من أصوات الجسد ألا وهو قرقرة البطن للسخرية من الفرزدق حيث يقول:

وَكُنتَ إِذا لَقيتَ بَني هِلالٍ وَكَعباً وَالفَوارِسَ مِن هِلالِ

تُقَرقِرُ يا فَرَزدَقُ إِذ فَزِعتُم خَزيراً باتَ في أُدَرٍ ثِقالِ[7]

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.43.

2- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.313.

3- المصدر نفسه، ص.476.

4- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.44.

5- أبو عبيدة معمر بن المثنّى التّميمي البصري، كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، ج.2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، 1971م، ص.265.

6- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.51.

7- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق ، ص.429.

فجرير في هذه الأبيات يربط بين قرقرة البطن والخوف والفزع من مواجهة الفرسان عند الفرزدق، حيث إن هذه القرقرة التي تُسمع من بطن الفرزدق ناشئة عن خوفه من مواجهة فرسان بني هلال وبني كعب، فصارت بطونهم تصوت بالخزير الذي أكلته، وهو قطع اللحم الصغيرة التي تُطبخ في الماء والملح، وهنا تتجلى السخرية في المأكل وصوته وموقف الفرزدق من مواجهته الفرسان[1].

1-3- سخرية أصوات الحركة:

إن الشعراء في العصر الأموي اعتمدوا كثيرا في أشعارهم على صوت الحركات الإنسانية، فإن كانت هذه الحركات بها عطب أو عيب ولا تعكس مظهر خارجي متّزن للفرد، فإنها تسبب ازدراء وتحقيرا للخصم، ومن بين هذه الأصوات الحركية التي وظّفوها في أشعارهم نجد: التقمّل، الوزوزة، الدبيب...

وفي هذا الشأن يقول الفرزدق ساخرا من والد جرير:

إِنّا لَنَضرِبُ رَأسَ كُلَّ قَبيلَةٍ وَأَبوكَ خَلفَ أَتانِهِ يَتَقَمَّلُ[2]

ففي هذا البيت نجد الساخر صوَّر والد جرير وهو يتقمّل، أي أنه يعالج القمل المنتشر في رأسه وجسده، وهنا تتجلى الحركة الساخرة لليد المضطربة، مما يؤدي للنفور، في حين نشاهد في صدر البيت صورة اليد الضاربة في رؤوس الأعداء، فشتان بين الصورتين، لهذا جعل الفرزدق جرير في مجموع القمليين أي من الرجال الحقيرين، وهنا صورة واضحة للسخرية والتهكم من جرير وأبيه[3].

وقد وظَّف الشعراء حركة الدرج وهي صوت حركة القنفذ أثناء مشيه ليلا، فهذه الحركة كان الشعراء قد استخدموها في أشعارهم للدلالة على مشية المسخور منه ليلا ليتسلل في الظلام[4]، وفي هذا الشأن يسخر الفرزدق من جرير وقومه إذ يقول:

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.45.

2- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.493.

3- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.ص.55-56.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص.58.

قَنافِذُ دَرّاجُونَ خَلفَ جِحاشِهِم لِما كانَ إِيّاهُم عَطِيَّةُ عَوَّدا[1]

هنا الشاعر شبّه جرير وقومه بالقنافذ التي تتسلّل ليلا إلى المنازل من أجل السرقة وارتكاب الرذائل، وكانوا قد أخذوا هذا السلوك من جدّهم عطية الخطفى الذي علّمهم هذه السلوكات السيئة[2].

كما استخدم جرير حركة دبيب النمل للسخرية من مشية الفرزدق في قوله:

إِنَّ الفَرَزدَقَ أَخزَتهُ مَثالِبُهُ عَبدُ النَهارِ وَزانِي اللَيلِ دَبّابُ[3]

فالسخرية هنا تتجلى في تشبيه مشية الفرزدق بمشية النمل وهي الدبيب والتي تمتاز بالبطئ وعدم إصدار صوت مسموع وذلك لقيامه بالرذائل والأفعال المخلة والمحرمة.

ومن الأصوات الحركية التي وظفها شعراء النقائض نجد الترميز وهو: «الإشارة أو الأسماء بالعينين أو الحاجبين أو الشفتين أو الفم، فهو تصويت خفي باللسان، والترمّز هو التحرك»[4]، ومن هانا فإن الترميز حركة يراد من ورائها السخرية وازدراء الخصم.

وقد سخر جرير من قبيلة مجاشع ووظف في ذلك حركة الترميز إذ يقول:

لاقَيتَ أَعيَنَ وَالزُبَيرَ وَجِعثِناً أَعدالَ مُخزِيَةٍ عَلَيكَ ثِقالِ

وَدَعا الزُبَيرُ مُجاشِعاً فَتَرَمَّزَت لِلغَدرِ أَلأَمُ آنُفٍ وَسِبالِ[5]

ففي هذه الأبيات نرى جريرا قد سخر من قبيلة مجاشع بعد مقتل الزبير، وذلك باستخدام حركة الترميز للتعبير عن غدرهم ولؤمهم وتخاذلهم عن نصرة الزبير، حيث أن كلمة (ترمَّزَت) فيها تعبير قوي عن الغدر بحركة الترميز، كما رسم صورة دنيئة للأنوف المضطربة والسبال للدلالة على الغدر[6].

1- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.162.

2- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.58.

3- محمد إسماعيل عبد الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.45.

4- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.52.

5- محمد إسماعيل عبد الصاوي، المصدر السابق ، ص.469.

6- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.54.

1-4- السخرية القائمة على أصوات اشتقاق الجرس الموسيقي:

يقوم هذا النوع من سخرية الأصوات على «نحت الألفاظ التي تشي بمعاني الهزء والاستخفاف معتمدا على إيقاعها الموسيقي الساخر، في ضخامة مبناها ورنين حروفها ودلالتها المبهمة الغريبة»[1]، وقد اعتمد شعراء النقائض خاصة جرير على هذا النوع من الأصوات من أجل ازدراء واحتقار المسخور منه، ومن بين الألفاظ الساخرة نجد: بني وقبان، جَوفى، خجخج، القذام، بني قباقب.

ومن أجل الوقف على الأصوات الساخرة التي استخدمها جرير في شعره الساخر نقف على شعر الفرزدق الذي سخر فيه من جرير[2]، في قوله:

أَحلامُنا تَزِنُ الجِبالَ رَزانَةً وَتَخالُنا جِنّاً إِذا ما نَجهَلُ[3]

فأجابه جرير مستخدما الأصوات الساخرة التي اخترعها، حيث يقول في الفرزدق وقبيلته مجاشع:

أَبلِغ بَني وَقبانَ أَنَّ حُلومَهُم خَفَّت فَما يَزِنونَ حَبَّةَ خَردَلِ[4]

ففي هذا الموضع نجد جرير يرد على الفرزدق وقومه فلقّبهم ببني وقبان، ولما قال الفرزدق (أَحلامُنا تَزِنُ الجِبالَ رَزانَةً) أجابه جرير: (حلومهم تزن حبة خردل)، وهذا للدلالة على السخرية والتهكّم بالمسخور منه.

كما بعمد جرير إلى استخدام نعوت هازئة: «مثل جوخى وهو اسم مخصص للنساء وخجخج ومعناه الحمق والقذام، فيلصقها ببني مجاشع قوم الفرزدق استخفافا بهم»[5]، حيث يقول:

فَإِنَّ مُجَاشِعًا فَتعرفُوهُمْ بَنُو جَوْخَى وخَجْخَجَ والقَذَامِ[6]

1- أنور حميدو علي فشوان، السخرية في شعر جرير، مجلة اللغة العربية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية، ع.24، مج.1، 2010م، 1431م، ص.ص.273-274.

2- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.65.

3- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.491.

4- جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1986م، ص.359.

5- أنور حميدو علي فشوان، المرجع السابق ، ص.ص.274-275.

6- جرير بن عطية الخطفي، المصدر السابق ، ص.406.

فالساخر في هذا البيت جعل هذه الأصوات الهازئة مخصصة لنساء قبيلة الفرزدق، والتي توحي باستهزاء واستصغار المسخور منه.

إضافة إلى أن «مجاشع جدّ الفرزدق كان يقبقب كالبعير كلما تكلّم، التقط جرير هذه الصفة وجعلها من نصيب جدوده»[1]، وفي هذا الشأن يقول:

بَلاءُ بَني قَباقِبَ كانَ خِزياً وَعاراً كُلَّما ذُكِرَ التَبالي[2]

فكل هذه الألفاظ التي ابتكرها جرير ووظفها في أبياته ضد الفرزدق وقومه لها دلالتها الصوتية التي تعكس جانب السخرية والهزء بالخصم.

2- سخرية مستوى التراكيب:

2-1- السخرية على مستوى الألفاظ:

استخدم جرير والفرزدق في أشعارهما ألفاظا ساخرة تمثّلت في ألفاظ المرأة وألفاظ الجسد والعاهة وألفاظ الحيوانات بالإضافة إلى ألفاظ الهيئة والشكل وغيرها...

أ- سخرية ألفاظ المرأة:

فالمرأة في نقائض جرير والفرزدق كانت تمثل مادة أساسية لابد من تناولها: «فهدف النقيضة الأساسي الذي يتعلق بالمرأة هو النيل من شرفها ووظيفتها في النسل والتهكم من دورها في العلاقة الزوجية والانحراف بها عن هدفها السامي إلى الرذية والفجور»[3]، فالغرض الأبرز للشاعر هنا يتمثل في السخرية من نساء الخصم وتوظيف الألفاظ الفاحشة والإقذاع في أخذ أعراض الأمهات والزوجات وتجريدهم من القيم والأخلاق السامية، وفي هذا الشأن يقول الفرزدق ساخرا من والدة جرير:

وَابنُ المَراغَةَ يَدَّعي مِن دارِمٍ وَالعَبدُ غَيرَ أَبيهِ قَد يَتَنَحَّلُ
أَزرى بِجَريكَ أَنَّ أُمَّكَ لَم تَكُن إِلّا اللَئيمَ مِنَ الفُحولَةِ تُفحَلُ
قَبَحَ الإِلَهُ مَقَرَّةً في بَطنِها مِنها خَرَجتَ وَكُنتَ فيها تُحمَلُ[4]

1- أنور حميدو علي فشوان، السخرية في شعر جرير، ص.275.
2- جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، ص.343.
3- فاطمة تجور، المرأة في الشعر الأموي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 1999م، ص.410.
4- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.494.

ففي هذه الأبيات صورة ساخرة من والدة جرير، ومن الأجنة الذين حملتهم في بطنها، وقد وصف بطنها بالخبث والقباحة[1].

ويرد عليه جرير بنقيضة يقول فيها:

يا أُمَّ ناجِيَةَ السَلامُ عَلَيكُمُ قَبلَ الرَواحِ وَقَبلَ لَومِ العُزَّلِ

لَو كُنتُ أَعلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهدِكُم يَومُ الرَحيلِ فَعَلتُ ما لَم أَفعَلِ[2]

ثم يكمل في الهجاء ويتناول جعثن بأحقر الصفات وأرذلها، وما إن يفرغ من جعثن حتى يوسع دائرة هتكه فيهجو بنات مجاشع جميعهن، ويلصق بهن أبشع الصفات ويسلبهن كل فضيلة أو قيمة أخلاقية[3].

كما سخر الفرزدق من قبيلة كليب، حيث تناول نساءها، إذ يقول في ذلك:

تَرى لِلكُلَيبِيّاتِ وَسطَ بُيوتِهِم وُجوهَ إِماءٍ لَم تَصُنها البَراقِعُ[4]

ب- سخرية ألفاظ الجسد والعاهة:

إن الكمال الجسدي يقترن أساسا بالجمال، في حين يعتبر النقصان الجسمي خروجا من معيار الجمال، فهو يندرج ضمن مقياس القبح، حيث إن فقدان الكمال الجسمي للإنسان قد يكون مدعاة للسخرية والتهكم، فيؤدي بصاحبه إلى احتقاره من طرف الآخرين، والاستهزاء به[5]، فجرير والفرزدق في هذا الباب وجدوا مبتغاهم من خلال توظيف هذه الألفاظ في أشعارهم من أجل الاستهزاء والتهكم، فهذا جرير يسخر من الفرزدق كونه أصلع:

وَلَقَد صَكَكتُ بَني الفَدَوكَسِ صَكَّةً فَلَقوا كَما لَقِيَ القُرَيدُ الأَصلَعُ[6]

فظاهرة الصلع هنا دلالة على السخرية، وهي مظهر من مظاهر النقصان التي تتعلق بالرأس.

1- ينظر: فاطمة تجور، المرأة في الشعر الأموي، ص.415.

2- جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، ص.357.

3- ينظر: فاطمة تجور، المرجع السابق ، ص.416.

4- إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، ج.2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط.1، 1983م، ص.74.

5- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.ص.119-120.

6- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.344.

إضافة إلى أن شعراء النقائض جعلوا من الأنف مادة للسخرية والتهكم من الخصم، ويبدو ذلك جليا من خلال سخرية جرير من أنف الفرزدق إذ يقول:

مَناخِرُ شانَتها القُيونُ كَأَنَّها أُنوفُ خَنازيرِ السَوادِ القَوابِعِ[1]

فالسخرية في هذا البيت تتمثل في «أنّ الفرزدق وأجداده كانوا يمتهنون الحدادة، وهي حرفة في العرف العربي لا تدل على عزة وأنفة لمن يمتهنها، كما أن أنوفهم وبسبب وهج الكير المحمّم أصبحت تصدر أصواتا مثل أصوات الخنازير»[2]، فالكير عندما يدخل أنف الفرزدق وأباءه يُحدث أصواتا مضحكة تجعل منهم محلا للسخرية والاستهزاء من طرف الخصم.

أما الفرزدق فنجده كذلك سخر من أنف جرير حيث يقول:

وَلَئِن رَغِبتَ سِوى أَبيكَ لِتَرجِعَن عَبداً إِلَيهِ كَأَنَّ أَنفَكَ دُمَّلُ[3]

فالساخر في هذا البيت «يسخر من حرير ويؤصل لعبوديته وعبودية والده، ويرمز إلى ذلك ساخرا من خلال الدمل الذي اعتلى الأنف معترك العزة والإباء في الإنسان»[4]، فالفرزدق شبّه أنف جرير بالدمل، وهو التهاب يصيب الجلد، يجعل الإنسان ينفر من رؤيته وجعل الفرزدق هذا الالتهاب في الأنف كون الأنف يمثل رمز الشهامة والعزة عند العربي.

كما استخدم شعراء النقائض العاهات الجلدية للسخرية والاستهزاء بالمسخور منه، فنجد جرير يعيّر نساء الفرزدق بالبرص، وذلك في قوله:

تَرَى بَرَصًا بِمَجْمَعِ إِسْكَتَيْهَا كَعَنْفَنَةِ الفَرَزْدَقِ حِيْنَ شَابَا[5]

وقد تجلت في أشعار جرير السخرية من الأيادي الضخمة التي لا قيمة لها، حيث يقول في الفرزدق وقومه:

بَنو عُشَرٍ لا نَبعَ فيهِ وَخَروَعٍ وَزِنداهُمُ أَثَلٌ تَناوَحَ خورُها[6]

1- المصدر السابق، ص.371.

2- سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.124.

3- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.494.

4- سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.125.

5- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.69.

6- المصدر نفسه، ص.270.

فالسخرية هنا تتمثل في «السواعد الضعيفة التي تجلّت في شجرة الأثل ذات القوة الواهية، حيث تعبث بها الرياح»[1]، فهنا جرير شبّه أيادي قوم الفرزدق بشجرة الأثل التي تمتاز بالضعف والهوان فوجه الشبه يتمثل في الضعف.

كما وظّف جرير العاهات التي تصيب العين كالعمى للسخرية واحتقار المسخور منه، حيث يقول في الفرزدق وأجداده:

وَفَقَّأَ عَينَي غالِبٍ عِندَ كيرِهِ نَوازي شَرارِ القَينِ حينَ يُطيرُها[2]

فجرير هنا استطاع رسم صورة واقعية عن العمى، حيث يجعل من الشرر المتطاير من الكير يصيب عيني غالب وهو أحد أجداد الفرزدق، وفي هذا سخرية واضحة من الفرزدق وأجداده، ومن ظاهرة العمى التي أصابتهم جراء مهنة الحدادة[3]، إذ أنها مهنة حقيرة في عرف العرب.

وفي موضع آخر نجد الفرزدق يسخر من أنف جرير، حيث يقول:

هُنالِكَ لَو تَبغي كُلَيباً وَجَدتَّها بِمَنزِلَةِ القِردانِ تَحتَ المَناسِمِ

وَما تَجعَلُ الظِربى القِصارَ أُنوفُها إِلى الطِمِّ مِن مَوجِ البِحارِ الخَضارِمِ[4]

فالفرزدق هنا جعل من الأنف القصير مظهر من مظاهر الذل والهوان في حق المسخور منه ألا وهو جرير وقومه ويبدو ذلك جليا في قوله (الظربى)، في حين جعل من الأنف الشامخ دليل على العزة والكرامة في قوله: (الموج، الخضارم)، إذ إنها توحي بقوة الساخر[5].

إضافة إلى ظاهرة الجدع للأنف التي استخدمها الشعراء للسخرية وتصوير الوضع الدوني للمسخور منه، وفي هذا يقول جرير ساخرا من الشعراء والفرزدق:

جَدَعَتْ مَسَامِعُكَ التِي لَمْ تَدْمِهَا سَعْدٌ فَلَيْسَ بِنَابِتٍ لَكَ مَسْمَعُ[6]

1- سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.137.

2- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير ، ص.270.

3- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.123.

4- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.221.

5- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.126.

6- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق، ص.351.

فالسخرية في هذه الأبيات تتجلى في قطع أنوف وآذان الفرزدق والشعراء إضافة إلى أن الجدع للأنف والأذن يورث العاهة، مما يسبب الوضع الدوني اجتماعيا وجسديا لصاحبها إذ إن قطع الأنف اجتماعيا من قبل الساخر يؤدي بتفوقه إبداعيا خاصة في مجال الشعر، مما يكسبه صفة الفحولية[1].

ومن الصورة الساخرة التي استخدمها الشراء منجد اللعاب؛ فهو لفظ ساهر يصور دونية المسخور منه، وفي هذا يقول الفرزدق ساخرا من جرير:

يَسيلُ عَلى شِدقَي جَريرٍ لُعابِهُ كَشَلشالِ وَطبٍ ما تَجِفُّ شَلاشِلُه[2]

فالشاعر في هذا البيت رسم صورة ساخرة مقززة لجرير، حيث يسيل اللعاب إلى جانب الفم أي تحت الخد، مثلما يسيل اللبن من ضرع الغنم، وفي هذا سخرية عميقة تصور دونية وقذارة المسخور منه مما يجعله هدفا للسخرية والهزء[3].

ج- سخرية ألفاظ الحيوانات:

كما وظّف شعراء النقائض ألفاظ الحيوانات خاصة القذرة منها مثل القرد والكلب، وذلك من أجل تصوير دناءة المسخور منه واحتقاره، ويتّضح ذلك في استخدام جرير لصورة القرد للدلالة على ضعف خصمه، حيث يقول:

عَشِيَّةَ لاقى القِردُ قِردُ مُجاشِعٍ هِزَبراً أَبا شِبلَينِ في الغيلِ قَسوَرا[4]

ففي هذا البيت تجلت صورة السرية في لفظ القرد للدلالة على المجون والعبث، كما اتضحت مظاهرة الرعب والخوف عند الفرزدق عندما لاقى الأسد في الليل، كما توحي صورة الهزبر نوازع الأبوة الطيبة في قوله شبلين، بالإضافة إلى العفة والمعيشة الهنيئة مع أولاده خلافا للفرزدق الذي تراه يهدر وقته جاريا وراء نزواته العابرة[5].

إضافة إلى صورة الكلب التي توحي بالمكانة الدنيئة، فضلا عن سلب الإنسانية للمهجو، وفي هذا يسخر الفرزدق من جرير، ويشبهه بالكلب في قوله:

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.126.

2- إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، ص.340.

3- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.131.

4- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق ، ص.248.

5- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.149.

فَإِنَّكَ كَلبٌ مِن كُلَيبٍ لِكَلبَةً غَذَتكَ كُلَيبٌ في خَبيثِ المَطاعِمِ[1]

فالفرزدق في هذا البيت سلب جريرا إرادته الإنسانية، وجعله مؤصلا في مجتمع الكلاب هو وعائلته، كما رسم له صورة دونية في قوله: (خبيث المطاعم) وفي هذا دلالة على قبحه والانتقاص منه[2].

واستخدم الفرزدق لفظة الثعلب لتصوير ذل وهوان المسخور منه أي جرير في قوله:

تَرَكنا جَريراً وَهوَ في السوقِ حابِسٌ عَطِيَّةَ هَل يَلقى بِهِ مَن يُبادِلُه
وَما أَلبَسوهُ الدِرعَ حَتّى تَزَيَّلَت مِنَ الخِزيِ دونَ الجِلدِ مِنهُ مَفاصِلُه
وَهَل كانَ إِلّا ثَعلَباً راضَ نَفسَهُ بِمَوجٍ تَسامى كَالجِبالِ مَجاوِلُه
ضَغا ضَغوَةً في البَحرِ لَمّا تَغَطمَطَت عَلَيهِ أَعالي مَوجِهِ وَأَسافِلُه
فَأَصبَحَ مَطروحاً وَراءَ غُثائِهِ بِحَيثُ اِلتَقى مِن ناجِخِ البَحرِ ساحِلُه[3]

فلفظة الثعلب في هذه الأبيات صورت جريرا مذلولا وسط الأمواج، حيث إن هذه الأمواج كانت عالية كالجبال، والمسخور منه كان وسطها فصاح من الألم والخوف من هذا الموقف، وفي هذا سخرية تثور جرير مذلولا وضعيفا.

كما استخدم جرير لفظة خوار الثيران أثناء صياحها عندما تتعب من الحرث وربط هذا الفعل بالفرزدق وقومه عندما خذلوا الزبير[4]، حيث يقول:

غَرّوا بِعَقدِهِمُ الزُبَيرَ كَأَنَّهُم أَثوارُ مَحرَثَةٍ لَهُنَّ خُوارُ[5]

فالسخرية هنا تتمثّل في خوار الثيران والتي توحي بالغدر والخذلان، وموقف يثير الحسرة والندم للفرزدق وقومه[6].

1- إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، ج.2، ص.577.
2- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.ص.152-153.
3- إيليا الحاوي، المصدر السابق ، ج.2، ص.ص.344-345.
4- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.154.
5- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.203.
6- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.154.

كما وظّف الشعراء لفظة النعام لتبيان مظاهر الجبن والانهزام، ومن أمثلة ذلك نجد جرير يصور نساء الفرزدق وهن يطلبن النجدة من قومهن، لكن قومهم هربوا مثل النعام نتيجة خوفهم من الأعداء[1]، وفي ذلك يقول:

تَرَكتَ بِوادي رَحرَحانَ نِساءَكُم وَيَومَ الصَفا لاقَيتُمُ الشَعبَ أَوعَرا

سَمِعتُم بَني مَجدٍ دَعَوا يالَ عامِرٍ فَكُنتُم نَعاماً بِالحَزيزِ مُنَفَّرا[2]

فالسخرية هنا تمثلت في تشبيههم بالنعامة التي تهرب وتهاب مواجهة الأعداء.

ومن ألفاظ السخرية التي عمد الشعراء لتوظيفها في شعرهم نجد ألفاظ الحشرات خاصة العنكبوت، وفي ذلك يقول الفرزدق ساخرا من جرير:

ضَرَبَت عَلَيكَ العَنكَبوتَ بِنَسجِها وَقَضى عَلَيكَ بِهِ الكِتابُ المُنزَلُ[3]

فالفرزدق هنا يرسم صورة ساخرة لجرير يظهره ذليلا ضعيفا واهنا، وقد استخدم في ذلك نسج العنكبوت[4].

د- سخرية ألفاظ الهيئة أو الشكل:

لقد وظّف الشعراء ألفاظ الهيئة والشكل الخارجي للإنسان في شعرهم، وجعلوه صورة واضحة للسخرية والاستهزاء من الخصم، كما تجلى هذا النوع كذلك في نقائض جرير والفرزدق، حيث يقول الفرزدق في هذا الشأن:

عَجِبتُ لِرامي الضَأنِ في حُطَمِيَّةٍ وَفي الدِرعِ عَبدٌ قَد أُصيبَت مَقاتِلُه

وَهَل تَلبِسُ الحُبلى السِلاحَ وَبَطنُها إِذا اِنتَطَقَت عِبءٌ عَلَيها تُعادِلُه

أَفاخَ وَأَلقى الدِرعَ عَنهُ وَلَم أَكُن لِأُلقِيَ دِرعي مِن كَمِيٍّ أُقاتِلُه[5]

في هذه الأبيات نجد أن «الفرزدق يسخر من جرير عندما جاء إلى مجلس الحجاج بن يوسف، وقد لبس درعا وتقلد سيفا وأخذ رمحا، وحينما رآه الفرزدق على هذه الهيئة ضحك منه

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.158.

2- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير ، ص.ص.250-251.

3- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.490.

4- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.162.

5- علي فاعور، المصدر السابق، ص.506.

وسخر من لباسه الذي لا يتناسب مع مكانته وماضيه كراع للغنم، وتبلغ السخرية غايتها عند الفرزدق، فتثير ضحك الجمهور من حوله، حيث يقرن الفرزدق هيئة جرير حينما حمل السلاح بالمرأة الحبلى التي لا تستطيع أن تنهض من مكانها، فضلا على أنها لا تقدر على حمل السلاح والضرب به»[1]، فالسخرية هنا تمثّلت في الهيئة الخارجية والزي الذي يرتديه جرير، وهذا ما جعله محطّ ضحك واستهزاء من طرف الجمهور.

ويرد جرير على الفرزدق بنقيضة يسخر فيها من زيّه، حيث يقول:

لَبِستُ أَداتي وَالفَرَزدَقُ لُعبَةٌ عَلَيهِ وِشاحا كُرَّجٍ وَجَلاجِلُه
أَعِدّوا مَعَ الحَلي المَلابَ فَإِنَّما جَريرٌ لَكُم بَعلٌ وَأَنتُم حَلائِلُه
وَأَعطوا كَما أَعطَت عَوانٌ حَليلَها أَقَرَّت لِبَعلٍ بَعدَ بَعلٍ تُراسِلُه[2]

فجرير في هذه الأبيات سخر من لبس الفرزدق «حينما جاء إلى مجلس الحجاج بن يوسف، وقد لبس الديباج والخز، وقعد في قبة»[3]، فالهيئة الخارجية للفرزدق والمتمثلة في زيّه جعلت جريرا يسخر منه والحجّاج والجمهور يضحكون من مظهره.

هـ- سخرية ألفاظ القيم الدينية:

وفي هذا الضرب من السخرية المرتبط بالقيم الدينية نجد أن الشعراء قد عمدوا فيه إلى استخدام ثنائية الردّة والفتنة، وفي هذا الشأن يقول جرير ساخرا من الفرزدق:

أَلا قَبَحَ اللَهُ الفَرَزدَقَ كُلَّما أَهَلَّ مُصَلٍّ لِلصَلاةِ وَكَبَّرا
فَلا يَقرَبَنَّ المَروَتَينِ وَلا الصَفا وَلا مَسجِدَ اللَهِ الحَرامَ المُطَهَّرا
فَإِنَّكَ لَو تُعطي الفَرَزدَقَ دِرهَماً عَلى دينِ نَصرانِيَّةٍ لَتَنَصَّرا[4]

وفي هذا إشارة إلى ضعف إيمان الفرزدق، حيث إنه على استعداد ليبيع دينه بثمن بخس، وهنا يصور جرير حقارة المسخور منه ودناءته.

1- سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.178.
2- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.482.
3- سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.179.
4- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق، ص.248.

2-2- السخرية في مستوى التراكيب والجمل:

إن للتراكيب والجمل دور كبير في إبراز المعاني الشعرية «حيث ترتكز جمالية الشعر على الصور التركيبية التي يمتطيها الشاعر في بناءه لشعره»[1]، مما يدلّ على أهمية التركيب في بناء الشعر.

كما اعتمد شعراء السخرية خاصة شعراء العصر الأموي وعلى رأسهم جرير والفرزدق على اللغة الساخرة لصياغة التراكيب والجمل من أجل التأثير في المسخور منه[2]، وهذه التراكيب الساخرة تجلت في مجموعة من الأنماط نذكر منها: تراكيب الإضافة والحذف، تراكيب الظرفية (ظروف الزمان والمكان)، إضافة إلى صيغ الجموع[3]، وغيرها.

أ- سخرية تراكيب الإضافة والحذف:

- سخرية الإضافة:

لقد اعتمد شعراء النقائض في أبياتهم الساخرة على الإضافة وذلك من خلال ما يؤديه المعنى القائم على الجمع بين اسمين من حقلين دلاليين مختلفين بطريقة جديدة ومبتكرة غير مألوفة ولم تكن معروفة سابقا[4].

وقد تجلّت سخرية الإضافة في قول جرير ساخرا من الفرزدق في قوله:

أَوَى شَيْخُ القُرُودِ مَعَ الزَّوَانِي لِيَخْتَارَ الحَرَامَ عَلَى الحَلاَلِ[5]

فالشاعر في هذا البيت سخر من الفرزدق ووضعه في مجتمع القرود، وتمثّلت السخرية هنا في إضافة القرود إلى شيخ، لتدل على انحراف الفرزدق، إذ أن كلمة شيخ دلّت على فسقه وفجوره[6]، وخروجه عن تعاليم دينه.

1- سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.206.

2- المرجع نفسه ، ص.ن.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص.ن.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص.207.

5- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير ، ص.428.

6- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.208.

كما وظّف الشاعران تراكيب الإضافة من خلال السخرية والتهكم من آباء المسخور منه وذلك عن طريق تشبيههم بالحيوانات الدنيئة، فنجد الفرزدق يسخر من والد جرير في قوله:

إذا أَنتَ يا اِبنَ الكَلبِ أَلقَتكَ نَهشَلٌ وَلَم تَكُ في حِلفٍ فَما أَنتَ صانِعُ[1]

فسخرية الإضافة في هذا البيت تتمثل في إنساب والد جرير إلى الكلب في قوله (يا ابن الكلب) لينقص من شأنه ومكانته.

ومن التراكيب الإضافية الساخرة نجد النعوت والصفات التي تقلل من قيمة المسخور منه فتلتصق به لتصبح لقبا يتميز به[2]، وفي هذا الشأن نجد جرير يسخر من الفرزدق وقومه، في قوله:

فَإِنَّ مُجَاشِعًا فَتَعرفُوهُمْ بَنُو جَوْخَى وخَجْخَجَ والقَذَامِ[3]

فجرير هنا ألصق بقوم مجاشع صفات ونعوت هازئة هي: بنو جوخى، خجخج، القذام، فهي مسميات قذرة في معانيها وتراكيبها، إضافة إلى أنها إضافات ساخرة تهدف للحط من شأن المسخور منه.

وعمد جرير إلى استخدام سخرية الإضافة من أجل النيل من الفرزدق ومكانته، وذلك في قول:

عَشِيَّةَ لاقى القِردُ قِردُ مُجاشِعٍ هِزَبراً أَبا شِبلَينِ في الغيلِ قَسوَرا[4]

فالسخرية في هذا البيت تجلت في استخدام لفظة "قرد" وإلصاقها بقوم مجاشع عن طريق الإضافة، وذلك لتصوير دناءة أصله واحتقاره، في حين نجد جريرا صور نفسه عن طريق استعمال تركيبة الإضافة (أبا شبلين) للدلالة على حنانه الدائم اتجاه أولاده وهناء عيشته، فضلا عن شجاعته وعزته بنفسه[5]، فتركيبة الإضافة في هذا البيت صورت لنا السخرية والدناءة في قوله (قرد مجاشع)؛ بينما صورت لنا القداسة والشجاعة في قوله (أبا شبلين).

1- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.361.

2- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الاموي ، ص.214.

3- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير ، ص.502.

4- المصدر نفسه، ص.248.

5- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.ص.208-209.

وفي موضع آخر نجد جرير يشبه الفرزدق بالحيوانات عن طريق استخدام تركيب الكنى الساخرة وذلك في قوله:

كَأَنَّكُمُ بِإِمعَزِ وارِداتٍ نَعامُ الصَيفِ زَفَّ مَعَ الرِئالِ

فَأَرسِل في الضِئينَ مُجاشِعِيّاً أَزَبَّ المِنخَرَينِ أَبا رُخالِ[1]

تمثلت السخرية هنا عن طريق تكنيته بأبا رُخال نسبة للحيوانات، فقد شبهه بالأَمْعُزِ الواردات إلى الماء[2]، وبهذا فقد ذله واحتقره وحط من شأنه بهذه التركيبة الساخرة.

وفي مثال آخر نجد الفرزدقق يسخر من والد جرير وعمه، في قوله:

لَقوا اِبنَي جِعالٍ وَالجِحاشُ كَأَنَّها لَهُم ثُكَنَ وَالقَومُ ميلُ العَصائِبِ[3]

فالفرزدق في هذا المثال مسخ والد جرير وعمه بصورة جعلان الرغام، فأبناء الجعال هما عطية جد جرير وأخوه، وقد نسبهما إلى الجعلان للسخرية من سواد المسخور منهما وتصوير قذارتهما[4].

– سخرية الحذف:

لقد استغل الشعراء الأمويون ظاهرة الحذف في تراكيب الكلام والجمل من أجل توظيفها في سخرياتهم وتجلّت سخرية الحذف في أشعار جرير والفرزدق من خلال بناء تراكيبهم اللغوية الساخرة بإلصاق صفات الضعف والعجز بالمسخور منه عن طريق الحذف[5]، وفي هذا الشأن يقول جرير وهو يسخر من الفرزدق:

فَلَن تَستطيعَ يا اِبنَ دَعيّ تَيمٍ عَلى دَحضٍ مُزَحَمَةَ القُيولِ[6]

فجرير هنا حذف خرف التاء من فعل (تستطيع)، وجاء الحذف متواليا مع حالة ضعف الفرزدق وقبيلة تيم وزوال همتهم، حيث أنهم لم يستطيعوا مباراة ومغالبة جرير[7].

1- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير ، ص.429.

2- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.212.

3- إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، ص.160.

4- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.213.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص.ص.220-221.

6- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق، ص.437.

7- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.221.

كما اعتمد الفرزدق على ظاهرة الحذف كذلك، حيث يقول ساخرا من قبيلة كليب قبيلة جرير:

إذا قيلَ أَيُّ الناسِ شَرُّ قَبيلَةً أَشارَت كُلَيبٌ بِالأَكُفِّ الأَصابِعُ[1]

في هذا البيت حذف الفرزدق حرف الجر (إلى) فالأصل أشارت إلى كليب[2]، ولجأ الفرزدق إلى هذا الحذف من أجل إلحاق صفات الضعف والإهانة بقبيلة كليب.

ب- سخرية دلالة الأزمنة والأمكنة:

- دلالة الأزمنة:

لقد لجأ شاعرا النقائض جرير والفرزدق إلى توظيف دلالة ظروف الزمان والمكان في أشعارهم من أجل توجيه طاقتها الزمانية أو المكانية، وذلك لتشويه صورة المسخور منه[3]، وفي هذا الصدد نجد أن جريرا قد استخدم ظرفي الزمان الليلة والنهار إذ أن الليل يوحي بالظلمة والعتمة، في حين أن النهار يرمز للضوء وسطوعه، وعمد جرير إلى استخدام هذا الظرف ليبعد عن نفسه صفات الفسق والفجور التي تحدث في الليل، وفي هذا الشأن يقول:

فَأَنا النَهارُ عَلا عَلَيكَ بِضَوئِهِ وَاللَيلُ يَقبِضُ بَسطَةَ الأَبصارِ[4]

ففي هذا البيت نرى أن «مجد جرير ساطع كضوء النهار والفرزدق ليل مظلم، والنهار منتصر على الليل بضوئه الذي يبدد الظلمات الكثيفة»[5]، فالظرفين هنا استخدما لتبيان استعلاء ومكانة شخصية الساخر (النهار) وتوضيح دناءة المسخور منه (الليل).

أما الفرزدق فنجده يردّ على جرير بنقيضة يقول فيها:

وَلَو لَبِسَ النَهارَ بَنو كُلَيبٍ لَدَنَّسَ لُؤمُهُم وَضَحَ النَهارِ[6]

1- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.362.

2- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.222.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص.225.

4- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.318.

5- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.226.

6- علي فاعور، المصدر السابق، ص.305.

فالفرزدق في هذه النقيضة استطاع أن يُحَقِّر شخصية المسخور منه عن طريق توظيف ظرف الزمان النهار، فقد بيّن من خلاله ضعف جرير وقومه وألصق بهم مظاهر الخزي والعار والتي تبدو واضحة للناس[1]، بالرغم من استخدام جرير للنهار لإبراز أمجاد ومآثر قبيلته.

- دلالة الأمكنة:

شغل ظرف المكان حيزا لا بأس به في أشعار جرير والفرزدق وذلك لإبراز دناءة المسخور منه، وفي هذا الصدد يقول الفرزدق ساخرا من جرير وقومه:

إِلى مَقعَدٍ كَمَبيتِ الكِلا بِ قَصيرٍ جَوانِبُهُ مُبلِدِ
يُواري كُلَيباً إِذا اِستَجمَعَت وَيَعجِزُ عَن مَجلِسِ المُقعَدِ[2]

فقد تجلّت السخرية هنا في تشبيه مسكن جرير وقومه بمسكن الكلاب، وهذا دليل على التحقير والإذلال، ذلك أن بيوت الكلاب صورة واضحة، تدل على القذارة والدناءة[3]، فالفرزدق هنا استطاع أن يوظف المكان للسخرية والتهكم من الخصم والنيل منه.

ويعمد جرير إلى السخرية المكانية، وذلك من خلال سخريته من بيوت بني ضبة أخوال الفرزدق[4]، حيث يقول:

وَجَدنا بَيتَ ضَبَّةَ في مَعَدٍّ كَبيتِ الضَبِّ لَيسَ لَهُ سَواري
وَجَدناهُم قَناذِعَ مُلزِقاتٍ بِلا نَبعٍ نَبَتنَ وَلا نُضارِ[5]

نجد جرير في هذه الأبيات شبه مساكن بني ضبّة ببيوت حيوان الضب للدلالة على البيون الدنيئة والوضيعة التي يسلكونها، إضافة لتصويره لبذاءة البيوت من أجل تبيان وضاعة نسب وأصل المسخور منه[6]، فالمكان هنا جسّد السخرية والاستهزاء بالخصم أي الفرزدق وأخواله.

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن ، السخرية في الشعر الأموي ، ص.ص.226-227.
2- علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص.158.
3- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق، ص.227.
4- ينظر: المرجع نفسه، ص.228.
5- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.192.
6- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.228.

كما استخدم الفرزدق دلالة المكان للسخرية من جرير وقومه، وفي ذلك يقول:

قَنافِذُ دَرّامونَ خَلفَ جِحاشِهِم لِما كانَ إِيّاهُم عَطِيَّةُ عَوَّدا[1]

فالسخرية هنا تجلت في ظرف المكان (خلف)؛ الذي بدوره صوّر لنا هيئة جرير وقومه، إذ إنهم يمشون خلف حميرهم، مما يدل على دناءتهم وحقارتهم، فهم دوما في مؤخرة ركب القوم[2].

ج- سخرية الجمع:

لقد اعتمد شعراء العصر الأموي في نظم أشعارهم الساخرة على صيغ الجمع المتمصلة في جمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم وجمع التكسير، وذلك لتبيان كثرة العيوب ووفرتها وثباتها في المسخور منه[3]، ومن أمثلة صيغ الجمع نجد التكسير في قول جرير وهو يسخر من الفرزدق:

أَلهى أَباكَ عَنِ المكارِمِ وَالعُلى لَيُّ الكَتائِفِ وَارتِفاعُ المِرجَلِ[4]

ففي هذا المثال نجد الساخر قد اعتمد على صيغة الجمع وهي المكارم والتي دلّت على مكارم الفرزدق وقومه المتمثلة في حرفة الحدادة، حيث عُدَّت عند العرب حقيرة لأن صاحبها تنبعث منه رائحة الكير ورائحة نتنة تفوح من الفرزدق وقومه، وبالتالي فإن مكارم الفرزدق تمثلت في الحدادة والتي توحي بالخبث والدناءة والي ساهمت في الاستهزاء بالمسخور منه وسط المجتمع الذي يعيش فيه[5].

كما وظّف الفرزدق صيغة الجمع، وذلك في سخريته من نساء قوم جرير في قوله:

الوَالِداتُ وَمَا لهُنَّ بُعُولَةٌ والقَاتِلاتُ لَهُنَّ كُلَّ صَغِير

وَالمُدْلِجَاتُ إِذا النُّجُوم تَغَوَّرَتْ وَالتَّبِعَاتُ دُعَاءُ كُلِّ صَفِير[6]

فالساخر في هذه الأبيات عمد إلى استخدام صيغة الجمع المتمثلة في جمع المؤنث السالم

1- إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، ص.308.

2- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.232.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص.241.

4- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.447.

5- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.244.

6- أبو عبيدة معمر بن المثنّى التّميمي البصري، كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، ج.2، ص.265.

(الوالدت، القاتلات، المدلجات، التابعات)، وذلك لتبيان كثرة نسوة قوم جرير، إضافة إلى ممارستهم للخصال الذميمة وارتكاب المعاصي[1].

ومن صيغ الجمع الساخرة ما قاله جرير في الفرزدق وقومه، إذ يقول:

غَرّوا بِعَقدِهِمُ الزُبَيرَ كَأَنَّهُم أَثوارُ مَحرَثَةٍ لَهُنَّ خُوارُ[2]

سخر جرير من الفرزدق وقومه في هذا البيت كونهم غدروا بالزبير، واستخدم في ذلك جمع التكسير، حيث شبه مجاشع بالثيران التي تكثر الخوار، فالجمع هنا دلّ على تكثير المعاني السلبية، فهي رمز للإنسان المتذمر[3].

تَراغَيتُمُ يَومَ الزُبَيرِ كَأَنَّكُم ضِباعٌ بِذي قارٍ تَمَنّى الأَمانِيا[4]

فالسخرية هنا تجلت في جمع التكسير (ضباع) فالضباع تدل على أولئك الطغاة الذين تواطئوا على قتل الزبير والعبث بجثته مثل ما تفعل الضباع بفريستها[5].

وفي إطار سخرية الجمع نجد جرير يستخدم جمع المؤنث السالم للسخرية من الفرزدق وقومه حيث يقول:

لَقَد خَزِيَ الفَرَزدَقُ في مَعَدٍّ فَأَمسى جَهدُ نُصرَتِهِ اِغتِيابا

وَلاقى القَينُ وَالنَخَباتُ غَمّاً تَرى لوكوفِ عَبرَتِهِ اِنصِبابا[6]

وفي هه الأبيات تدلت سخرية جمع المؤنث السالم في لفظة (النخبات) للدلالة على الجبناء من رجال مجاشع تشبيها بالنساء[7].

كما وظف جرير اللفظ نفسه في موضع آخر للسخرية من الفرزدق وقومه، حيث يقول:

أَبَا القَينَينِ وَالنَخَباتِ تَرجو لِيَربوعٍ شَقاشِقَ باذِخاتِ[8]

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.246.

2- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير ، ص.203.

3- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.244.

4- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق ، ص.606.

5- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.245.

6- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق، ص.81.

7- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.246.

8- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق ، ص.85.

فلفظ الناخبات أصبح مرتبطا بقوم الفرزدق، فقد عُرِفوا به واشتهروا به حتى صار على كل لسان، فإذا ذكر هذا اللفظ يربطه المتلقي مباشرة بالفرزدق وقومه.

د- سخرية اللقب:

اللقب الساخر اسم يقوم عادة على الإقصاء والتهميش، بحيث يكون المسخور منه مهانا ومذموما؛ إذ إن مناداة الشخص المسخور منه بهذا اللقب تجعله مدعاة للسخرية والتهكم[1]، وتتنوع هذه الألقاب من ألقاب حيوانية أو صفات حيوانية وغيرها، ومن أمثلة هذه الألقاب الساخرة نجد جرير لقب والد الفرزدق بحوض الحمار، حيث يقول:

حَوضُ الحِمارِ أَبو الفَرَزدَقِ فَاعرِفوا مِنهُ قَفاً وَمُقَلَّداً وَعِذارا
حَوضُ الحِمارِ أَبو الفَرَزدَقِ فَاعلَموا عَقَدَ الأَخادِعِ وَانشِناجَ المِرفَقِ
شَرُّ الخَليقَةِ مَن عَلِمنا مِنكُمُ حَوضُ الحِمارِ وَشَرُّ مَن لَم يُخلَقِ[2]

فقد أطلق جرير هذا اللقب على والد الفرزدق لأنه كان أحدب الصدر وطويل اللحية، حيث أن هذا اللقب جعل المسخور منه شخصية هامشية وبسط المجتمع[3]، كما ساهم في إذلاله واحتقاره.

إضافة إلى أن اللقب الساخر يؤدي بالمسخور منه إلى الإقصاء الاجتماعي، وفي ذلك يقول جرير في الفرزدق وقومه:

وَإِذا لَقيتَ بَني خَضافِ فَقُل لَهُم يَومُ الزُبَيرِ كَسا الوُجوهَ غُبارا
عَدّوا خَضافِ إِذا الفُحولُ تُنُجِّبَت وَالجَيثَلوطَ وَنَخبَةً خَوّارا
وَإِذا فَخَرتَ بِأُمَّهاتِ مُجاشِعٍ فَافخَر بِقَبقَبَ وَاذكُرِ النِخوارا[4]

فجرير في هذه الأبيات أطلق مجموعة من الألقاب الساخرة على الفرزدق وبني مجاشع، وهذه الألقاب هي: (بني خضاف، الجيثلوط، قبقب، النخوار...)، حيث إن «هذه الألقاب تهدم البناء الشامخ للفرزدق وقومه في الواقع الاجتماعي والبطولي والإنساني، فأصبحت هذه

1- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.253.
2- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.231-405.
3- ينظر: سالم بن سالم بامؤمن، المرجع السابق ، ص.255.
4- محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، المصدر السابق ، ص.227-229.

الألقاب نعوتا هازئة تلتصق بهم التصاقا، حتى تصبح لازمة يكررها الناس متى ذكروهم أو نادوهم»[1]، فهذه الألقاب الهازئة تجعل من المسخور منه محتقرا اجتماعيا، وعند ذكرهم هذه الألقاب والصفات فتؤدي بالمتلقي إلى ربطها مباشرة بالفرزدق وقومه.

2-3- سخرية التكرار

اعتمد الشاعر الساخر على التكرار كمظهر جمالي وفني، فالتكرار يؤدي دورا مهما داخل الخطاب الشعري الساخر لأنه أسلوب تعبيري يصور انفعالات النفس البشرية تجاه الآخر؛ ومنها التهكم والسخرية. وقد تنوع التكرار من تكرار الحروف والكلمات وتكرار الأسماء والأعلام، فالتكرار هنا ظاهرة فنية وصوتية جسّدت لنا السخرية والهزء بالخصم عند كل من جرير والفرزدق[2].

أ- سخرية تكرار الحروف:

لَقَد وَلَدَت أُمُّ الفَرَزدَقِ فاسِقاً وَجاءَت بِوَزوازٍ قَصيرِ القَوائِمِ[3]

في هذا البيت نجد جرير عمد إلى استخدام حرف القاف خمس مرات، حيث إن هذا الحرف صوت مجهد للنفس أثناء النطق به، إذ إنه يتناسب مع سلوك المسخور منه (الفرزدق)، الذي كان مجهدا للشاعر بحركته، ومستمرا عليها في مجال الفسق والرذيلة، وتعامله المشين مع الناس في عصره[4].

ب- سخرية تكرار الأسماء والأعلام:

يعمد الشعراء الساخرون إلى استخدام التكرار خاصة تكرار الأسماء والأعلام، «فعندما يكرر اسم المسخور منه فكأنما يريد ألا يغيب عنه مسخوره لحظة عن أذن السامع أو القارئ، فهو بهذا يهدف من تكراره إلى أن يحفر تلك الصورة الساخرة بالتكرار المِلح في فكره

1- سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي ، ص.256.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.89.

3- محمد إسماعيل عبد الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.558.

4- ينظر: سالم بن محمد بامؤمن، المرجع السابق ، ص.81.

ووجدانه»[1]، ومن أمثلة سخرية تكرار الأسماء والأعلام قول جرير ساخرا من قبيلة تيم، ومستهزءا من مكانتها الاجتماعية:

يا تيمُ ما القارونَ في شِدَّةِ القِرى بِتَيمٍ وَلا الحامونَ عِندَ الحَقائِقِ
وَتَيمٌ تُماشيها الكِلابُ إِذا غَدَوا وَلَم تَمشِ تَيمٌ في ظِلالِ الخَوافِقِ
وَتَيمٌ بِأَبوابِ الزُروبِ أَذِلَّةٌ وَما تَهتَدي تَيمٌ لِبابِ السُرادِقِ
تُمَسَّحُ تَيْمٌ قُصَّةَ التَّيْسِ وَاسَته وَلاَ يَمْسَحُونَ الدَّهْرَ غُرَّة سَابِق[2]

فالسخرية في هذه الأبيات تمثلت في تكرار اسم "تيم" للدلالة على الاستهزاء والاحتقار لهذه القبيلة، ورسم لهم صفات دونية مثل: البخل، والرعاة الأذلاء، وأنهم يمشون بصحبة الكلاب، ولا يمسون تحت رايات الحرب، وغيرها من الصفات الخسيسة والحقيرة، فتكرار اسم التيم صوّر لنا انفعالات جرير تجاههم، فقد بيّن صفاتهم الدونية التي يتميزون بها[3].

1- سالم بن محمد بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي، ص.85.
2- محمد إسماعيل عبد الصاوي، شرح ديوان جرير، ص.399-400.
3- ينظر: سالم بن محمد بامؤمن، المرجع السابق ، ص.86.

خَاتِـمَةٌ

خاتمة

نخلص من هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج والملاحظات من بينها:

- الأدب العربي ومنذ العصر الجاهلي حافل بالسخرية التي امتزجت بأغراض أخرى كالهجاء.
- تعدد مفهوم السخرية من باحث لآخر، ورغم هذا التعدد والتنوع إلا أنها لم تحظ بتعريف جامع مانع محيط بكل جوانبها.
- أبرز التعريفات للسخرية نراها لامست جزءا منها، غير أنها لم تتطرق للأهم وهو الجوهر، ورأينا أن أغلب الدارسين أقروا بهذا العجز والتقصير في بحوثهم ودراساتهم مثل "سليمان الشباتة".
- ترتبط السخرية بمجموعة من الاصطلاحات القريبة منها مثل: الفكاهة والضحك والتهكم والهجاء والكوميديا والدعابة والنكتة والمفارقة... وإن كانت هذه المصطلحات مختلفة ومتعددة غير أنها تصب في المجال نفسه ألا وهو السخرية.
- الهجاء هو الشكل الأبرز في السخرية في أدبنا العربي خاصة الجاهلي منه.
- تراجعت السخرية في عصر صدر الإسلام وُعدّ الهجاء الجاهلي إثما لا يجوز قوله خاصة المقذع منه.
- ظهر في عصر صدر الإسلام السخرية الدينية، استخدمها الكثير من الشعراء أمثال حسان بن ثابت لخدمة الدعوة الإسلامية والدفاع عن الإسلام.
- شهد العصر الأموي تطورا واضحا وملموسا في فن السخرية فقد ظهرت النقائض وكانت من أبرز العوامل التي ساعدت على تفشي الهجاء والسخرية اللاذعة ورواجها بين الناس، هدفهم في ذلك إضحاك الجماهير وإلهائها، برز فيها ثلة من الشعراء أمثال جرير والفرزدق والأخطل.
- شكلت السخرية في العصر الأموي مادة فنية في العديد من نماذجه.

- في العصر العباسي أصبحت السخرية فنا قائما بذاته له أصوله وقواعده، وعرفت تطورا مهما على يدي شعراء بارزين أمثال بشار بن برد وأبو نواس وابن الرومي إضافة إلى الكتاب على رأسهم الجاحظ.
- شاعت السخرية في العصر الأندلسي وهي لا تقل شأنا عما كانت عليه في العصر العباسي، واتسعت مجالاتها، وتعددت اتجاهاتها فكانت السخرية السياسية والسخرية الاجتماعية.
- السخرية في العصر الحديث كانت نوعا من النقد الاجتماعي تهدف لإصلاح المجتمع وتقويم السلوك الإنساني كما تناولت مختلف القضايا السياسية.
- تنوع وسائل السخرية في الأدب العربي، فقد تكون بقول أو فعل أو عن طريق إشارة.
- قد تكون السخرية ظاهرة وقد تكون ضمنية مفهومة من سياق الكلام.
- تظهر السخرية على شكل لفظ أو مجموعة ألفاظ متشابكة أي تجمعها قوانين النحو من تقديم وتأخير وحذف.
- التشكيل اللغوي الساخر في الشعر عامة وفي أشعار جرير والفرزدق خاصة يكمن في ثلاث مستويات (المستوى الصوتي، المستوى اللفظي، المستوى التركيبي).
- سخرية مستوي الأصوات تتمثل في سخرية أصوات الحيونات وسخرية أصوات الجسد وسخرية أصوات الحركة والسخرية القائمة على أصوات اشتقاق الجرس الموسيقي، فإستحداث أصوات جديدة دالة على الإحتقار وتشويه صورة الخصم تساهم في الحصول على نبرة ساخرة في شعر جرير و الفرزدق.
- سخرية مستوى الألفاظ تجلت في سخرية ألفاظ المرأة وسخرية ألفاظ الجسد والعاهة وسخرية ألفاظ الحيوانات وسخرية القيم الدينية إضافة إلى سخرية ألفاظ الهيئة والشكل، هدفهم من ذلك الاستهزاء بالخصم والسخرية منه.
- التراكيب اللغوية الساخرة تمثلت في سخرية الإضافة والحذف وتوظيف ظروف الزمان والمكان لتصوير حقارة المسخور منه، إضافة إلى استخدام سخرية الجمع عن طريق إلصاق

المخازي بالخصم والقبيلة لإظهار العيوب والنقائص، وتوظيف الألقاب الساخرة بهدف ازدراء وإهانة الخصم من خلال إطلاق ألقاب حيوانية عليه لتحقيره وتهميشه.

ختاما نحمد الله عز وجل الذي وفّقنا لإتمام هذا العمل المتواضع، ونأمل أن يعود على قارئه ولو بالقليل من النفع، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مَكْتَبَةُ البَحْثِ

مكتبة البحث

القرآن الكريم برواية حفص

1- المصادر والمراجع العربية:

1) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، ج.1، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.3، 2002م.

2) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، رسائله وأخباره، شعر الملكين، شرح الحلبي، القاهرة، مصر، ط.1، 1932م.

3) أبو عبيدة معمر بن المثنّى التّميمي البصري، كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، ج.2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، 1971م.

4) أبو نواس الحسن بن هانئ ، ديوان أبي نواس، تح. أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

5) أحمد حسين الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.

6) أحمد شوقي، الشوقيات، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د.ط، 2012.

7) الأخطل غياث بن عوث بن طارقة أبو مالك، ديوان الأخطل، شرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، 1994م.

8) الأزهري محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تح. عبد السلام هارون، مراجعة: محمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء، مصر، 1964م.

9) إنعام فوّال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة (البديع، والبيان، والمعاني) مراجعة أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، 1996م.

10) إيليا أبو ماضي، ديوان أبو ماضي، دار العودة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

11) إيليا الحاوي، شرح ديوان الفرزدق، ج.2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط.1، 1983م.

12) بشار بن برد، ديوان بشار بن برد، ج.2، تح. محمد الطاهر بن عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، 1954م.

13) توفيق الحكيم، حمار الحكيم، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، د.ط، 1990م.

14) جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1986م.

15) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط.1، 2003م.

16) حسان بن ثابت الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، تح. عبد أمهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، 1994م.

17) الحطيئة جرول أبو مليكة، ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1993م.

18) الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ج.1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 2000م.

19) الخليل بن أحمد الفراهيدي،كتاب العين، دار الكتب العلمية، ط.1، 2003م.

20) الزمخشري أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، ج.1، تح. محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1998م.

21) زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تح. علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1988م.

22) سالم بن سالم بامؤمن، السخرية في الشعر الأموي.

23) شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، عالم المعرفة، الكويت، 2003م.

24) شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط.8، د.ت.

25) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، السعودية، د.ط، 2004م.

26) عبد الحليم حنفي، التصوير الساخر في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1992م.

27) عبد الحليم محمد حسين، السخرية في أدب الجاحظ، لدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ط.1، 1988م.

28) عبد الخالق عبد الله عودة عيسى، السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، الجامعة الأردنية، الأردن، 2003م.

29) عبد الخالق عبد الله عودة عيسى، السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، مخطوط دكتوراه في اللغة والأدب العربي، الجامعة الأردنية، الأردن، 2003م.

30) عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 2008م.

31) عبد العزيز شرف، الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الحيزة، مصر، ط.1، 1992م.

32) علي فاعور، ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1987م.

33) عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، ج.1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط.4، 1981م.

34) فاطمة تجور، المرأة في الشعر الأموي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 1999م.

35) فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط.1، 2007م.

36) كاظم المقدادي، السخرية في البرامج التلفزيونية، دار ميزوبوميات، بغداد، العراق، ط.1، 2014م.

37) لويس معلوف، المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط.19، د.ت.

38) محفوظ كحوال، أروع قصائد أحمد مطر، سلسلة الشعر العربي المعاصر، أكثر من 230 قصيدة، مكتبة نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.

39) محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي، مصر، ط.1، 1353هـ.

40) محمد سامي الدهان، الهجاء، دار المعارف، القاهرى، مصر، ط.3، د.ت.

41) محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميز، الإسكندرية، مصر، د.ط، 1947م.

42) مروان بن محمد أبو الشمقمق، ديوان أبو الشمقمق، تح. واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1995م.

43) مشتوب سامية، السخرية وتجلياتها الدلالية في القصة الجزائرية المعاصرة مشتوب سامية، السخرية وتجلياتها الدلالية في القصة الجزائرية المعاصرة مخطوط ماجستير في اللغة والأدب العربي،جامعة مولود، معمري ، تيزي وزو ، 2011م.

44) النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط.2/ د.ط، د.ت.

45) نافع عبد الله، الهجاء في الشعر العربي الأندلسي، مركز الوثائق والأبحاث، رام الله، فلسطين، ط.1، 1984م.

46) نبيل راغب، الأدب الساخر (الأعمال الخاصة)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2000م.

47) نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، ج.3، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

2- الرسائل المخطوطة:

48) أحمد علي آل مريع عسيري، ذكريات علي الطنطاوي، دراسة فنية، مخطوط ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1419هـ.

49) شعيب بن أحمد بن محمد عبد الرحمن الغزالي، أساليب السخرية في البلاغة العربية، دراسة تحليلية تطبيقية، رسالة في البلاغة والنقد، مخطوط ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 1414هـ.

50) عبد المنعم إبراهيم الحاج محمد، الهجاء في العصر العباسي الثاني، دراسة تطبيقية تحليلية في شعر البحتري وابن الرومي وابن المعتز، مخطوط ماجستير في الأدب والنقد، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2008م.

51) فتيحة بالمبروك، خطاب السخرية ودلالته في الشعر العربي المعاصر، مخطوط دكتوراه في الأدب العربي، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014-2015م.

52) لؤي موفق الحاج علي، صورة المهجوّ في شعر النقائض، مخطوط ماجستير، جامعة جرش، عمان، الأردن، 2015م.

53) مساعد بن سعد بن سعد بن ضحيان الذبياني، السخرية في شعر عبد الله البردوني، مخطوط ماجستير في الأدب العربي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1431هـ.

54) نزار عبد الله خليل الضمور، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مخطوط دكتوراه، جامعة مؤتة، الأردن، 2005م.

55) هويدا الطريفي الإمام علي بن عوف، ملامح الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من خلال شعر ابن الرومي، مخطوط ماجستير، جامعة الخرطوم، السودان، 2007.

3- المعاجم والقواميس:

56) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، ج.3.

57) ابن منظور محمد جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب، تح. عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 2003م.

58) المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط.4، 2004م.

4- الدوريات:

59) أنور حميدو علي فشوان، السخرية في شعر جرير، مجلة اللغة العربية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية، ع.24، مج.1، 2010م، 1431م.

60) شمسي واقف زادة، الأدب الساخر أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، مجلة فصلية دراسات الأدب المعاصر، السنة الثالثة، ع.12.

61) نادية كتاف، خطاب السخرية في أدب العرب إبّان عصور القوة، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم الآداب واللغات، جامعة محمد الصديق يحيى، جيجل، الجزائر، ع.22، جانفي 2019.

فَهْـــرَسٌ

فهرس الموضوعات:

مقدمة.....أ

المدخل: السخرية في الأدب مدخل مفاهيمي.....01

تمهيد.....02

1- مفهوم مصطلح السخرية لغة واصطلاحا.....02

2- المفاهيم المرتبطة بالسخرية في الأدب.....07

الفصل الأول: الأدب الساخر النشأة والتطور.....13

1- السخرية في الأدب العربي.....13

1-1- السخرية في العصر الجاهلي.....14

1-2- السخرية في صدر الإسلام.....18

1-3- السخرية في العصر الأموي.....22

1-4- السخرية في العصر العباسي.....25

1-5- السخرية في العصر الأندلسي.....30

1-6- السخرية في العصر الحديث.....38

الفصل الثاني:مظاهر الخطاب الساخر في نقائض جرير والفرزدق.....45

1- لمحة عن النقائض.

2- التشكيل اللغوي الساخر في نقائض جرير والفرزدق.....47

1- سخرية مستوى الأصوات.....48

1-1-سخرية أصوات الحيوانات.....48

1-2-سخرية أصوات الجسد.....51

1-3-سخرية أصوات الحركة.....52

1-4- السخرية القائمة على أصوات اشتقاق الجرس الموسيقي.....54

فهرس الموضوعات:

2- سخرية مستوى التراكيب.....55
2-1- السخرية على مستوى الألفاظ.....55
2-1- السخرية في مستوى التراكيب والجمل.....63
2-1-سخرية التكرار.....71
خاتمة.....74
مكتبة البحث.....78
فهرس.....85